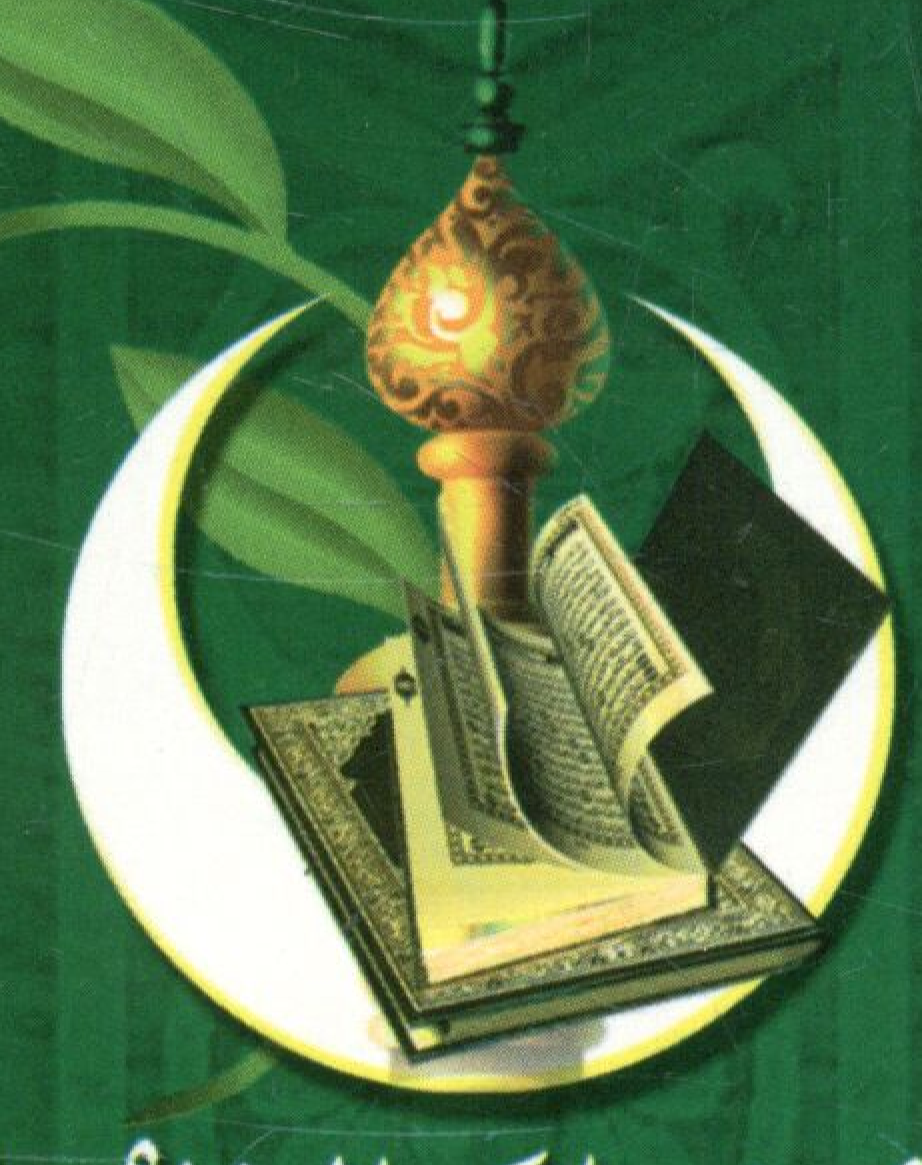
الإسلام وتقاليد الجاهلية

بحث يهدف إلى مواجهة تيارات
إحياء التقاليد الوطنية في إفريقيا



آدم عبد الله الإلوري

مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي
أجيجي - نيجيريا



مكتبة وهبة

آدم عبد الله الإلوري
مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي
أجيجي - نيجيريا

الإسلام وتقاليد الجاهلية

(بحث يهدف إلى مواجهة تيارات
إحياء التقاليد الوطنية فى إفريقيا)

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٢٧٤٦

الإسلام وتقاليد الجاهلية
آدم عبد الله الإلوري
الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة
٢١٦ صفحة ١٤ × ٢٠ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٢/١٣٢١٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-350-0



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد
إدارة الشئون الفنية

الإلوري، آدم عبد الله
الإسلام وتقاليد الجاهلية : بحث يهدف إلى مواجهة تيارات إحياء التقاليد الوطنية في إفريقيا / آدم عبد الله الإلوري. - ط ١. - القاهرة : مكتبة وهبة، ٢٠١٢
٢١٦ صفحة ؛ ١٤ سم. -

تدمك ٠ ٣٥٠ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الإسلام والجاهلية.
٢- الإسلام في إفريقيا.

٢١٤,٩٥٣٠١

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت: ٢٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة السيد / على السيد صبح المدنى

إن الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها . وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

أقدم لهذا الجيل من أجيال المسلمين ؛ هذا الكتاب الجيد النافع ، الذى عرّف فيه مؤلفه بالجاهلية وتاريخها المشبوه ، ووجودها المدمر.

وموضوع الكتاب هام للغاية ، إن لم يكن من أهم الموضوعات جميعها .

فمعرفة الجاهلية والوقوف على أخبارها وأسرارها ومساربها إلى النفوس والقلوب والضمائر، أمر ضرورى ينبغى أن يحرص على معرفته كل مسلم، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ينقض عرى الإسلام عروة عروة قوم نشأوا فى الإسلام وهم يجهلون ما كانت عليه الجاهلية » .

نعم ؛ إن معرفة ما كانت عليه الجاهلية فى عقائدها وعباداتها وسلوكها وعاداتها حتمى حتى يستقر إيمان المؤمن على أسس قوية ثابتة ظاهرة ..!

خاصة وأن الجاهلية تزحف اليوم بخيلها ورجلها ، على معاقل الإسلام وحصونه، وتجند للدعوة إليها، وللقتال في صفها كل منافق وخائن ومدلس وجاهل وكذاب! .

أولئك هم رجال الجاهلية ودعاتها في كل زمان ومكان ..!

أولئك هم الذين يعبثون ويعيثون في الأرض بالفساد..

ولولا رجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات ، لجرف طوفان الجاهلية الرهيب كل أثر للخير ، ولدمر في طريقه كل بناء للفضيلة ، وكل كيان للحق ..!

ولكن الله يقيض لهذه الأمة من الدعاة الفاهمين الواعين - في كل عصر ومصر - من يحمل لواء الحق ، فيدفع كيد المبطلين ، ويرد زيف المزيفين ، وينفي دجل الكاذبين ، ويدفع بحجته شبهات الضالين .

ولقد وفق الله ذلك العالم السلفي الشيخ آدم عبد الله الألوري ، فعكف على تأليف كتابه هذا : [الإسلام وتقاليد الجاهلية] .

ولقد ركز أكثر في كتابه وكتابته على الجاهلية في نيجيريا ، حيث يمارس الدعوة .

والجاهلية فى نيجيريا .. هى الجاهلية فى كل مكان ، وفى كل زمان ..!

وجهها الكالح المشوه لا يتغير مهما سترته بالمساحيق .. !

جوها الخانق لا يتطهر ولا يتنور مهما ازدحمت فيه الأضواء واللألاء والمغريات والملهيات .. !

إن جاهلية القرن العشرين .. هى جاهلية كل قرن ..!

وإن الخرافة فى القرن العشرين هى الخرافة فى كل قرن ..!

ونتوقف قليلاً لنحكى قصة الجاهلية منذ نشأتها الأولى .. ولنتعرف على أساطيرها القديمة لندرك أن العقلية الخرافية التى أنتجت هذه الجاهلية وتمخضت عنها. هى نفس العقلية التى ولدت الجاهليات جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً بعد قبيل ..

قالوا[١] :

إن الجاهلية هى الزمان الذى كثر فيه الجهال ، وهى ما قبل الإسلام ، وقبل أيام الفترة – وهى الزمن بين الرسولين –

---

(١) أبو هلال العسكرى فى كتابه الأوائل ، بتحقيق الدكتور محمد جميل غازى ص ٣٧ (رسالة دكتوراه) .

وقد تطلق على زمن الكفر مطلقًا ، وعلى ما قبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبى ﷺ والبعث[١] .

وعن ابن خالويه أن هذا اللفظ اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة .

وقال العسقلانى فى شرحه على البخارى : وهذا هو الغالب، ومنه : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

ثم قال : وأما جزم النووى فى عدة مواضع فى شرح مسلم بأن هذا هو المراد حيث أتى، ففيه نظر ، فإن هذا اللفظ – وهو الجاهلية – يطلق على ما مضى، والمراد ما قبل إسلامه ، وضابط آخره فتح مكة . اهـ .

وتفصيل الكلام : أن لفظ الجاهلية قد يكون اسمًا للحال – وهو الغالب فى الكتاب والسنة – وقد يكون اسمًا لذى الحال .

فمن الأول : قول النبى ﷺ لأبى ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية »، وقول عمر رضى الله عنه : « إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة » وقول عائشة رضى الله عنها : « كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء » وقولهم : « يا رسول الله كنا فى جاهلية

---

(١) بلوغ الأرب ١/ ١٥ .

وشر » أى فى حال جاهلية، أو طريقة جاهلية، أو عادة جاهلية، ونحو ذلك.

فإن الجاهلية ، وإن كانت فى الأصل صفة ، ولكن غلب عليها الاستعمال حتى صارت اسماً ، ومعناه قريب من معنى المصدر .

وأما الثانى : فنقول : طائفة جاهلية ، وشاعر جاهلى ، وذلك نسبة إلى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم.

وأما (الجاهلية الأولى) التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ فقد اختلف المفسرون فى المراد بها .

والذى أميل إليه أن الله سبحانه وتعالى جعلها أولى بالنسبة إلى الجاهلية التى ستأتى بعدها .

قال أبو هلال العسكرى فى فصل عقده عن : «أول ما قيل الجاهلية» : إن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله إن إبلاً لى أصيبت فى الجاهلية[1] .

---

(١) ليس هذا الحديث فى شىء من كتب السنة على ما أعلم، والله أعلم.

قال : وكانت قريش تسمى فى الجاهلية : « العالمية » لفضلهم وعلمهم.

قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

ألسنا أهل مكة عالميًّا وأدركنا السلام بها رطاباً

والسلام : الحجارة .

ولقد كان للعرب مزاعم جاهلية، وخرافات عجيبة، منها هذه، فلقد كانوا يزعمون أن الحجارة رطبة لينة، قال ابن العجاج:

قد كان ذاكم زمن الفطحل والصخر مبتل كطين الوحل

وكانوا يزعمون : أن كل شىء كان يعرف وينطق كما قال أمية بن أبى الصلت:

بآية كان ينطق كل شىء وخان أمانة الديك الغراب

وكانوا يزعمون أن الأشجار لم يكن لها شوك، قال الشاعر:

وكان رطيباً يوم ذلك صخرها وكان حصيداً طلحها وسيالها

وأن ذلك إنما تغير حين عصى ابن آدم فى قتله أخاه ، وأن الأرض لما شربت من دم المقتول ، عوقبت بعشر خصال :

(١) أنبت فيها الشوك . (٢) وصير فيها الفيافى . (٣) وخرق فيها البحار . (٤) وملح طعمها وملح طعم أكثر

مياهها . (٥) وخلق فبها الهوام والسباع . (٦) وجعلت قراراً للعاصين . (٧) وصيرت جهنم فيها . (٨) وجعل ثمرها لا يأتى إلا فى حين . (٩) وجعلت توطأ بالأقدام . (١٠) ثم لم تشرب بعد دم ابن آدم دم أحد من ولده ولا غير ولده .

وكانوا يزعمون أن الحية كانت مثل الجمل وكان تطير، فدخل فيها إبليس وطارت به حتى أدخلته الجنة فأغوى آدم ، فصيرت ملعونة(١) .

قال عدى بن زيد :

وكانت الحية الرقشاء إذ خلقت كما ترى ناقة فى الخلق أو جملا

ذلك شىء مما زعمه الجاهليون ويزعمون ، وما أكثر ما زعموا ويزعمون .!

وهى نماذج تعطينا صورة عن العقلية الجاهلية الأسطورية التى تتسع لكل الخرافات والمتناقضات ..!

ومن هنا نفهم ونعلم ، أن العقلية الجاهلية عقلية مريضة

---

(١) قال ابن كثير فى التفسير (١ / ١١٤) . وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيرهم ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس!!

مسلولة مشلولة ، لا تقوى على التفكير ولا التصور الدقيق لحقائق الأشياء .

وكذلك هى فى زماننا هذا .. فهى تفتح نفسها أمام كل جنون وحشو وانحراف وفوضى وتغلق نفسها أمام كل حق وخير وعلم ..!

ولقد غزت الجاهلية فى زماننا هذا كل البقاع والأصقاع ..

وإن كانت قد أخذت لوناً معيناً عند دخولها كل مكان ...

وإذا كانت ألوان الجاهلية تتباعد وتختلف ، فإن طبيعتها واحدة وأصلها واحد ..!

فى زماننا هذا .. نجد (خرافة شرقية) ونجد (خرافة غربية) .

فالأولى : تعادى العقل .

والثانية : تعادى الدين .

غير أن الأولى والثانية تتفقان على عداء الإنسان ومقدراته .. وعلى رفض الحق الذى قامت به السموات والأرض .

تلك كلمة أردنا بها أن نقدم لهذا العمل الجليل الذى قام به - مشكوراً من الله ثم من الناس - الشيخ آدم عبد الله الألورى .. فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين .. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

القاهرة فى غرة ربيع الأول عام ١٣٩٧ هـ

على السيد صبح المدنى

كلمة العالم الكبير الشيخ محمد المبارك

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم النبيين

فضيلة الأخ الشيخ آدم عبد الله الألورى حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فقد نظرت فى كتابكم «الإسلام وتقاليد الجاهلية» نظرة تأمل وتفحص، فوجدته: كتاباً جيداً فى موضوعه مفيداً فى مضمونه، والمسلمون فى حاجة إلى مثله. وإن قارئه ليخرج بفكرة واضحة يميز بها بين الإسلام وما يتفق معه من عادات، والجاهلية، وما يتصل بها من تقاليد، سواء فى ذلك الجاهلية القديمة والحديثة. وهو إلى ذلك منهجى فى بحثه عربى فصيح فى أسلوبه يصدر فيه مؤلفه عن فهم فقهى دقيق تدعمه شواهد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مع تدقيق فى صحتها وبيان مرجعها. والكتاب فى أوله يتناول الجاهلية القديمة، وفي آخره يتناول تقاليد الجاهلية الشائعة فى نيجيريا، لا سيما فى قبيلة يوربا.

والخلاصة : إنى أعجبت بكتابكم غاية الإعجاب موضوعًا ولغة وأسلوبًا وهدفًا، فجزاكم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأثابكم على عملكم النافع هذا الذى يضاف إلى أعمالكم الأخرى فى مجال الدعوة إلى الدين الحق وإلى الله، ونشاطكم العلمى أجزل الثواب . واقبلوا خالص التحية والود والتقدير.

كتب فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام
٣٠ صفر ١٣٩٧ هـ

من أخيكم
محمد المبارك
عميد كلية الشريعة فى جامعة دمشق سابقا
والأستاذ فى جامعة الملك ابن عبد العزيز بجدة

اللهم إنى أسألك خوف العالمين بك .

وعلم الخائفين منك ،

ويقين المتوكلين عليك ،

ورجاء الراغبين فيك ،

وزهد الطالبين إليك ،

وورع المحبين لك ،

وتقوى المتشوقين إليك .

«دعاء مأثور»

بين يدى البحث

الإسلام وتقاليد الجاهلية ، عنوان لأوراق منشورة لنا عام ١٩٦٤م وكانت مكملة لورقات سابقة صدرت عام ١٩٥٦م باسم التواضع فى الإسلام ، ومتممة لرسالة متقدمة صدرت سنة ١٩٤٨م باسم الدين النصيحة .

وهى جانب من جوانب أعمالنا فى التوعية والتثقيف ، وأثر من آثار كفاحنا وجهادنا فى التعليم والإرشاد ، وأسلوب من أساليب إصلاحنا للأوضاع الفاسدة والمنحرفة فى الأوساط الإسلامية بهذه البلاد .

وكنت قد التزمت نشر هذه الرسائل بالعربية مع قلة قرائها ، لاعتقادى أنهم رأس العين ، كما قال فقيه مصر الإمام الليث ابن سعد : « من رأس العين يأتى الكدر فإذا صفا رأس العين صفت السواقى » . والعلماء قلب الأمة والقلب مضغة فى الجسد ، إذا صلحت صلح الجسد كله كما فى الحديث .

وقد حملنى على إعادة نشر هذا البحث بتوسع فى هذا الزمان ما يحيط ببلادنا من نشاطات واسعة النطاق لبعث عقابيل الوثنية من مراقدها ، ونبش عظام الجاهلية من مقابرها تحت شعار «إحياء التقاليد الوطنية» .

فليس كل التقاليد الوطنية بنزيهة طيبة يرحب الإسلام بها ، كما أنه ليس جميعها بقبيح خبيث يحذر الإسلام منه .

فأصبح من واجب الداعية أن يبين للناس ما أحل لهم وما حرم عليهم ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ .

وقد توسعت فى البحث ليخرج عن الحدود الإقليمية إلى الأفق العالمى ، ليستفيد منه القاصى والدانى .

ولولا رغبتى فى إفادة من دونى من أبناء دينى، لما تشجعت على هذا البحث الذى لم أجد فيه كتاباً جامعاً شاملاً لجميع تقاليد الجاهلية ، يوفى على الغاية فأقتبس منه ، فقد اجتهدت بما استطعت ، ولعله يغنى الجاهل ويسعف السائل أو يشفى العليل ويروى الغليل ، وعلى الله قصد السبيل .

آدم عبد الله الألورى

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على من لا نبي بعده

تصدير الكتاب

منذ ظهر الإسلام فى بلاد العرب وانتشر منها إلى بلاد الزنج(١) والفونج(٢) والهند والسند وغيرها من بلاد العالم ، لم يتنزه بالكلية فى عصر من الأعصار – غير عصر النبوة والصحابة – ولا فى مصر من الأمصار – غير مكة المكرمة والمدينة المنورة – من رواسب الجاهلية ولوازب الوثنية .

وإذا تنزه بلد من بعضها لم يتنزه بلد آخر من البعض الآخر ، وإذا تخلص من بعضها عصر لم يتخلص عصر آخر من البعض، وهكذا تتأرجح البلاد مع الإسلام بين مد وجزر مع النقاية والنفاية يعلو حيناً ويسفل طوراً .

---

(١) الزنج : تطلق على سائر قبائل السودان ، كما أوضحه ابن خلدون فى المقدمة . وهى مرادفة للحبشة والنيغر والسودان .

(٢) الفونج : قبائل من النوبة فى السودان العربى أسسوا مملكة سنار (القرن الخامس عشر الميلادى) .

وربما كثرت هذه الرواسب فى بعض البلاد ، وربما قلت فى البلاد الأخرى، وربما أدت تلك التقاليد إلى تأخر المسلمين فى بعض البلاد .

ويوجد من علماء الإسلام فى كل زمان ومكان من يقيضه الله لمحاربة هذه التقاليد إلى جانب محاربتهم البدع والخرافات ، ولما امتلأت المكتبات العربية بالكتب التى تبين البدع فى دين الله عذراً أو نذراً ، ولم يغادر العلماء من البدع صغيرها ولا كبيرها شيئاً إلا أحصوه وحاربوه حتى اتهم بعضهم بعضاً بالشطط أو الإفراط فى التكفير من أجلها .

ولكنى لم أقف على كتاب يستقصى تقاليد الجاهلية الممقوتة فى حيز واحد ، وذكر موقف الإسلام منها فإن تقاليد الجاهلية القديمة فى دنيا الناس قرينة البدع الحديثة فى دين الله ، ولا بد من محاربة الاثنتين معاً ، إلا ما أقره الشرع من تلك التقاليد .

ثم إن الحضارة الحديثة صارت تتهم الحقائق بأنها خرافات ، وظلت بذلك تحمل معها شراً بالغ الخطورة يهدد الدين نفسه

بالزوال وينذره بالاستئصال والاضمحلال . لأنها لا ترى فى الكون شيئاً غير المادة ، بل ترى أن ما يقال من وجود روح وعالم روحى ليس إلا من توليد الخيال ، وأوهام الأفكار ، ووساوس الأمانى ، وأساطير الأولين .

وكل شيء لا يقوم على الحس والتجربة فليس بموجود عند المعجبين بالحضارة المادية ؛ لذلك صاروا يطلقون اسم (خرافة) على الدين والوحي والنبوة والجن والملائكة .

فوجب علينا والحالة هذه أن نقدم للشباب المسلم ما يستطيع به أن يميز الخبيث من الطيب ، والخرافة من الحقيقة فيعلم أنه ليس كل ما يطلق عليه أهل الحضارة الغربية كلمة خرافة يكون خرافة ، ولا كل ما يطلقون عليه لفظ حقيقة يكون حقيقة، بل الحقيقة ما حققه رب العالمين : ﴿ **الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ .

ثم لنعلم أن التبشير الصليبى أصبح جنداً قويًّا من جنود الشيطان الذى أوعدنا أمام ربنا بقوله :

﴿ **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم**

مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٦، ١٧] .

ولقد صار التبشير الصليبى أداة من أدوات الشيطان فوقف للمسلمين بالمرصاد على حين غفلة منهم ليضلهم .

ومن مظاهر ذلك : أن التبشير أخذ القطعة الأخيرة من الحكمة العلوية[١] القائلة : « أصدقاؤك ثلاثة : صديقك ، وصديق صديقك ، وعدو عدوك » .

اتخذ هذه القطعة الأخيرة قاعدته الأساسية لمعاداة المسلمين .

لهذا نرى التبشير الصليبى الدولى يتصالح مع اليهود ويعلن إبطال عقيدته التى عاش عليها طوال عشرين قرنًا من الزمان بأن اليهود قتلوا المسيح فيأتى البابا فى القرن العشرين ليعلن براءة اليهود من دم المسيح ، ليتم الصفاء بين الطرفين أصحاب الكتاب المقدس ، فيتألبا على المسلمين المسالمين ، وعلى القرآن الكريم فى العالم العربى أولاً ثم العالم الإسلامى ثانياً .

---

(١) المنسوبة إلى على بن أبى طالب .

وهكذا نرى التبشير الصليبى يتصالح مع الوثنيين فى نيجيريا فيدعوهم إلى إحياء تقاليدهم الوطنية بما فيها من آثار الوثنية السابقة للإسلام مع توهين ما جاء به الإسلام من ثقافات وحضارات وأمجاد ، ليبعدوا ضعفة الإيمان من المسلمين عن شعائر دينهم إلى شعائر الكفر والوثنية .

ومن ثَمَّ وجب على الدعاة المسلمين أن يعيروا هذه الناحية التفاتهم ، وأن يدرجوا محاربة تقاليد الجاهلية فى مناهج دعوتهم.

أجل : إن التقاليد الجاهلية من المحرمات المنصوص عليها فى القرآن ، والحديث كما يأتى ، ومن الفواحش التى حرمها الله حسبما جاء فى الآية الآتية :

﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣].

١ - الفواحش : جمع فاحشة ، وهى كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، ويدخل فيها تقاليد الجاهلية ، لأن الله

وصف بعضها بذلك فى شأن نكاح الابن زوجة أبيه «نكاح المقت» ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٢٢]

٢ - والإثم: فعل ما لا يحل، وأكل ما لا يحل، وشرب ما لا يحل، وهو كل ما يجلب ضرراً على صاحبه من الأطعمة والأشربة والأفعال والأقوال .

٣ - البغى : تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى فيه الاقتصاد ، وهو أيضاً الظلم والعدوان والحسد والغيبة .

٤ - الشرك بالله سواء أكان الشرك الأكبر والأصغر ، أو الجلى والخفى .

٥ - الكذب على الله : ويدخل فيه البدع فى الدين وما يكتبه اليهود والنصارى بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ومن على شاكلتهم من الطوائف الزائفة من مؤسسى الديانات الجديدة فى عصرنا الحاضر .

لهذا وذلك كله أخرجت هذا الكتاب وعلى الله قصد السبيل . والسلام عليكم

رمضان ١٣٩٦ هـ

سبتمبر ١٩٧٦م

الباب الأول

من هى الأمة الجاهلية

العرب جيل من الناس كانوا يسكنون أطراف الجنوب الغربى من آسيا قبل الإسلام، ثم انتشروا فى مصر وشمال أفريقيا وغيرها بعد الإسلام ، وكانوا قسمين (عرب البدو – وعرب الحضر) .

والبدو سكان البادية ويسمون الأعراب .

ويغلب على طباعهم الحمق والجهل وجفاء القول، وهذا الذى يسمى بالعنجهية، لذلك وصفهم القرآن بقوله فى سورة التوبة ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٩٧] .

والبداوة هى الغالبة على العرب القدماء ، ومن غلبة البداوة عليهم قَلَّت فيهم الصناعة حتى كانوا يعتمدون فيها على الفرس والروم وغيرهما من الأمم المجاورة لهم ، على أن هذه العنجهية

ليست خاصة بسكان البادية من العرب بل هى شاملة لسكان البادية من كل أمة .

وفى الحديث عن النبى ﷺ «من بدا جفا» وكلمة من : تعد من ألفاظ العموم عند الأصوليين .

والحضر : سكان المدن وتغلب عليهم رقة الحضرية التى تقابل جفاء البدوية وهم مع تلك الحضارة تغلب عليهم الأمية التى وصفهم القرآن بها فى قوله : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة : ٢] .

وقال النبى ﷺ : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، تتمة حديث الصيام فى الصحيحين.

ومن غلبة الأمية عليهم قلت فيهم العلوم ولهذا أطلق عليهم أمة جاهلية فيما أرى أنا . وليست الجاهلية خاصة بالعرب القدامى ، وإنما هى عامة لكل أمة غير كتابية، أو غلبت عليهم الأمية وقلت فيهم العلوم ، لأن الأمية مظنة الجهل كما أن الكتابة والقراءة مظنة العلم .

وإن كان لا يزال بين الأميين علماء وبين القارئين الكاتبين

جهلاء كما أوضحه الدكتور نظمى لوقا فى كتابه «وامحمداه» فليس هذا فى حكم الأغلبية .

وكان أهل أوربا يطلقون على ما يقابل عصر الجاهلية عندنا كلمة (العصور المظلمة) عندهم مقابلة المثل بالمثل فى الأحوال والأوضاع ، وكان إطلاق الجاهلية على العرب بعد ظهور الإسلام كما كان إطلاق العصور المظلمة على أوربا بعد ظهور العلم عندهم .

كان العرب قبل الإسلام يستعملون كلمة الجهل فى حدود معناه العادى الذى هو عندهم الحمق والجفاء والتسرع فى القول والفعل ونحو ذلك .

وعليه قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقرر الدكتور أحمد أمين أن الجاهلية عند العرب ليست من الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكن من السفه والغضب والأنفة، لهذا كانت الكلمة تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة ، ولهذا يقابلها هدوء النفس والتواضع والاعتداد بالعمل الصالح لا بالنسب[١] .

(١) فجر الإسلام ص ٧٠ .

لم تكن صفة الجاهلية اصطلاحاً إسلاميًّا تنبع معانيه من المنابع الإسلامية. ولم يجعل الإسلام فرقًا بين إطلاقها على من لا يقرأ ولا يكتب أو على من يقرأ ويكتب إذا كان لا يجرى على موجب علمه كما أطلقها على السحرة فى قوله:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

ولما نفى العلم عنهم أثبت لهم الجهل .

وأنا أرى أن الجاهلية : مصدر صناعى يقابله وزناً ومعنى مقابلة الضد بالضد فى الوضع اللغوى ، لفظ (العالمية) وإن لم تستعمل حيث لم تكن العلوم منتشرة بين الناس فى دنيا العرب ودنيا الناس قبل الإسلام ، وكانت القراءة والكتابة غاية العلوم ظل إطلاق لفظ الأمى على من لا يقرأ ولا يكتب تمييزاً بينه وبين من يكتب ويقرأ، ولم تنتشر العلوم حتى يكثر فيهم العلماء فينشر استعمال كلمة عالم .

وكان اليهود يطلقون صفة الأمية أو الأممية على غير بنى إسرائيل، ولو كان يكتب ويقرأ وذلك بقولهم كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

ويقول بعض العلماء : ليست غلبة الأمية على العرب

السبب الوحيد الذى من أجله أطلق لفظ الجاهلية عليهم ، إذ فيهم حين ذلك من يكتب ويقرأ ويتعاطى مع ذلك أحوال الجاهلية المنكرة .

وفى تفسير ابن كثير نقلاً عن ابن عباس قال : «إذا أردت أن تعلم جهل العرب فاقرأ فى سورة الأنعام قوله تعالى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] وما بعدها » .

ويقول الأستاذ السورى محمد المبارك فى كتابه « الأمة العربية » ، إن الجاهلية عبارة عن وضع قيم الأشياء فى غير مواضعها ، وأن الله وصف أهل الجاهلية بأوصاف ثلاثة وهى : الضلالة – والغفلة – والإسراف .

أما الضلالة ففى قوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [البقرة : ١٩٨]

وأما الغفلة ففى قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] .

وأما الإسراف ففى قوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف : ٥] فبذلك تنطوى هذه المعانى تحت كلمة الجاهلية .

التقـاليد

تختلف الأمزجة الخلقية عند الناس تبعاً لاختلاف الأجواء والبيئات التى يعيشون فيها ، فينشأ من ذلك اختلاف التقاليد والعادات فتكون طرائق قددا .

وشر ما فى الإنسان من آفة أن يعض بالنواجذ على ما يرث من الأجداد والأسلاف من العادات والتقاليد دون ما غربلة .

وليس جميع ما يورث من العادات والتقاليد يكون خيراً أو شرًّا؟

العادات : تطلق على الملكات العارضة، كالمشى والقعود والكلام والسكوت، وكيفية الطعام والشراب واللباس والسكن .

والأخلاق : تطلق على الملكات الراسخة فى الإنسان فضائلها ورذائلها، كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل والحياء والوقاحة والصدق والكذب .

والتقاليد : تطلق على العقائد والعادات الموروثة من الأسلاف ، وهى تستعمل غالباً بصيغة الجمع .

أما مفردها الذى هو التقليد : فهو غريزة أودعها الله فى الإنسان وبها يحاكى غيره أو يتشبه بمن يريد .

والعقائد إن لم تكن مستوحاة من الله ورسله كانت أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة .

والخرافات : هى الاعتقادات الباطلة والأوهام الزائلة التى لا أساس لها من الصحة ومنشؤها الجهل والخوف، أو الغش والتمويه .

وإنما أخذ لفظ الخرافة من اسم رجل زعموا فى الجاهلية أن الجن اختطفه مدة ثم رجع إلى قومه وصار يخبرهم بما رأى وما وقع له من الجن فكذبوه وصاروا يقولون لما لا يمكن وقوعه (حديث خرافة) .

البدعة : هى العادة الدخيلة على العادة والعبادة الأصلية .

والبدعة العادية : ما يتجدد من الأحوال ويتغير من الأوضاع فى العادات والتقاليد .

والبدعةُ الدينية : زيادة أو نقصان أو تحريف أو تغيير عن الأصل المشروع .

والإسلام لم يترك خرافة من الخرافات إلا تعرض لها وفندها، ولم يترك حقيقة من الحقائق الغيبية إلا أثبتها ووطدها .

أما العادات والتقاليد الموروثة عن الأجداد والأسلاف فالإسلام لا يبطل جميعها ولا يقبل جميعها .

ولكنه يجعل الحظر فى التقاليد موقوفاً على مفسدتها لعقيدة الفرد وأخلاقه ومعاملته مع الجماعة ، كما يجعل الإباحة فيها موقوفة على مصلحتها للفرد وللإنسانية جمعاء طبقاً للقاعدة الأصولية المعروفة عند فقهاء الإسلام .

وكذلك ينظر الإسلام إلى البدع ، فإنه يقبل منها ما كان من العادات ويرضاها، لأنه لا يأمر بالجمود على عادة أو حالة، ولكنه لا يرضى بالبدع فى العبادات ما لم يأذن بها الله .

أما الخرافات : فبعضها تلتبس بالغيبيات ، أنزل الإسلام الوحى لتحقيق ما كان حقًّا منها ، وإبطال ما كان باطلاً .

ولكل أمة عادات وتقاليد منها ما يستحسن ومنها

ما يستقبح، وتزدهر تلك التقاليد بازدهار تلك الأمة كما تتدهور بتدهورها، وكثيراً ما تمتزج تقاليد الأمم بجاهليتها الأولى.

وكان يتسرب إلى كل ملة وديانة بدع وزيادات ، ومن الملل والديانات ما يقبل كل عادة وكل بدعة ولا يردها كالنصرانية واليهودية .

أما الإسلام، فإنما ينظر إلى التقاليد الموروثة كالناقد البصير، ليغربلها حتى يذهب الزبد جفاء ويبقى للناس ما ينفعهم ، مما يتجدد صلاحه مع تجدد الزمن فيقبله ويرضاه وينظر إلى بدع العبادات فيرفضها ويأباها . .

وقد قسم بعض المؤلفين البدعة الدينية إلى نوعين[١] :

الأول : بدعة حسنة، وهى ما يلحق بالمصالح المرسلة[٢]،

---

(١) ويرى العالم المحقق الشيخ محمد المبارك – ونحن معه – أن البدعة ما يستحدث بعد أن لم يكن . وهى فى (العقيدة) و(العبادة) ممنوعة وقبيحة، وفى الأمور الدنيوية كالأدوات والآلات والملابس حسنة إن لم يكن فيها حرمة .
وقد تكون فى المعاملات فيما أجازه الشارع كالشركات المستحدثة غير المشتملة على حرام.

(٢) المصلحة المرسلة . هى ما لا يشهد له نص معين من الشارع بالفعل أو الترك ، ولكنه وجد من أصل الحكم نفسه ما يدل على جواز العمل به، أو وجد من القواعد الشرعية العامة ما يدل على =

ويستدل عليها بقاعدة شرعية لحديث «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» رواه مسلم في صحيحه .

والثاني : بدعة قبيحة وهي ما يخالف قواعد الدين الأساسية ، أو ما ينحرف بالدين عن جادته المشروعة .

وقيل البدعة ما يكون في المقاصد والمصلحة المرسلة تكون في الوسائل، وبين علماء الإسلام حرب الأقلام في تحسين بعض البدع وعدم تحسينه ، فلسنا الآن بصدد ذلك . فعلى الباحث الرجوع إلى مظانه إن شاء . مثل كتاب الاعتصام للشاطبي . وليس من الإسلام للغزالي، والمدخل لابن الحاج والإبداع في مضار الابتداع لعلي محفوظ والسنن والمبتدعات لمحمد بن عبد السلام وغيرها .

= جواز العمل به ، مثال ذلك جمع القرآن في مصحف لم يأمر به النبي ﷺ ولم ينه عنه ، ولكنه أمر بكتابة القرآن ، ثم وجدت نصوص من القرآن تدل على ذلك منها أنه كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون، وغير ذلك من الآيات والأحاديث .

وكذلك صلاة التراويح جماعة ، فقد صلاها النبي مرتين في جماعة ثم ترك ذلك خشية أن يتخذها الناس فريضة.

وفي عهد سيدنا عمر رضي الله عنه : أذن للناس أن يصلوها جماعة لأن النبي صلاها جماعة ثم وجد من القواعد العامة فضل صلاة الجماعة فرضاً ونفلاً هكذا .

الإسلام بين التميع والتزمت فى العادات

لقد أثبت علماء الأخلاق أن كل عمل يتكرر من الإنسان سواء أكان خيراً أم شرا يصبح عادة « والعادة توأم الطبيعة » .

قال الشاعر الحكيم :

لكل امرئ فى الخيــر والشر عادة وكل امرئ جـار على ما تعـودا

ومـعنى ذلك أن : من شب على شىء شـاب عليـه ، ومن شاب على شىء مات عليه .

وكل من تعود شيئاً حتى بلغ من العمر خمسين عاماً تجمد عليه وتحجر، ولا يستطيع غيره ، لهذا قال شاعرهم :

إذا جاوز الخمسين سنك لم يكن لـدائـــك إلا أن تمـــوت طبيب

وقال الآخر :

الشيـخ لا يتــرك أخلاقـــه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وقال ابن دريد :

يقـــوم الشـــارخ من زيغـــانه فيـستوى ما انعاج منه وانحنى

والشـــيخ إن قـومتـه من زيغـه لم يقم التثقيف منه ما التوى

كذلك الغصن يصير عطفه   لدنا شديد غمزه إذا عسا

وكل ذلك شرح لمعنى الأثر القائل «التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر، والتعليم فى الكبر كالرسم على البحر».

ولذلك يهتم الأذكياء من الدعاة فى جميع الأديان بالشباب دون الكهول والشيوخ، لأن غريزة التقليد لا تزال قوية فى طباع الشباب .

والشباب إذا لم يجد أمامه غير آبائه جعلهم مثله الأعلى وقلدهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾

[البقرة : ١٧٠]

وإذا وجد الشباب قوماً غلبوا على آبائه ترك عادة آبائه وقلد الغالبين. ولهذا قرر ابن خلدون : «أن المغلوب دائماً مولع بتقليد الغالب ، وأن الأبناء والتلاميذ والرعية يتشبهون بآبائهم وملوكهم لأنهم كانوا يعتقدون فيهم الكمال».

والتزمت على الموروث من الأسلاف وعلى ما أكل عليه

الدهر وشرب هو الجمود. وللجمود مزاياه إذا كان على ما أنزل الله من عقيدة وبرهان ، لهذا قال الأستاذ عباس محمود العقاد :

«ولولا بقية من جمود الإنسان على ما يرث من آبائه لما بقى على ظهر البسيطة دين ولو مبدلاً قبل نزول المجدد، أو كما قال .

وللجمود خزاياه إذا كان على غير ما أنزل الله من العلم والإيمان ، لذلك جعل الله المعيار العادل فى التقليد والجمود هو الوحى والعقل اللذان يبطلان خرافات الاعتقادات وأوهام الوساوس.

كان العرب على العادات والتقاليد الموروث بعضها من آثار الحنيفية ، فجاء الإسلام بإثباتها وتقريرها وإبقائها ، والموروث بعضها الآخر من رواسب الوثنية . فجاء الإسلام بمحاربتها وإلغائها وسماها جاهلية .

وأمر المسلمين برفضها رفضاً تامًّا وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

وقد ربط النبى ﷺ كمال إيمان المؤمن بموافقة ما جاء به ، ومخالفة تقاليد الجاهلية فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » متفق عليه .

وقال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » رواه البخارى .

وقال ﷺ : « إن أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم، ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه » رواه البخارى .

وقال ﷺ لرجل قال : يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية قال « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام يؤاخذ بالأول والآخر » .

وأوضح النبى ﷺ أن عمل الخير فى الجاهلية فقط لا يجدى عامله نفعاً، ما لم يدخل العامل فى الإسلام ، وإن دخل فالإسلام يجب ما قبله .

وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، إن ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ، قال ﷺ : « لا ينفعه ، إنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » رواه أبو داود .

* * *

من معانى الجاهلية

الجاهلية : وضع جامع لسائر الأحوال الرذيلة التى كان عليها العرب والعجم وسائر الأمم قبل الإسلام .

وهو اصطلاح إسلامى استعمله الإسلام لما قبل الإسلام وما بعده ، من آثارتلك الأحوال، لقول النبى ﷺ لأبى ذر الصحابى الجليل «إنك امرؤ فيك جاهلية» .

وتطلق الكلمة من جهة أخرى على العصر الذى قبل الإسلام بمئتى عام ، ومن ذلك أخذوا كلمة الأدب الجاهلى ، والشعر الجاهلى ، والعصر الجاهلى ، وقد استعمل النبى كلمة الجاهلية لهذا المعنى بقوله : «الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام» .

وعلى هذا وذاك يكون معنى الجاهلية الاصطلاحى :

فترة من الزمن عاش فيها العرب وغيرهم من الأمم على الكفر والوثنية والمفاسد الخلقية ودعاوى العصبية والربا بسائر أنواعها .

لهذا جاء فى خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع : « ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع » إلى أن قال « إن دماء الجاهلية موضوعة. وربا الجاهلية موضوع ».

وتطلق الجاهلية فى الإسلام على التخلق بشىء من تلك الأخلاق الرذيلة .

وقد كتب الكاتب الإسلامى القدير محمد قطب كتاباً ضخماً سماه (جاهلية القرن العشرين) وعرف الجاهلية تعريفاً ينطبق على ما قبل الإسلام وبعده .

قال محمد قطب فى هذا الكتاب :

الجاهلية كلمة تطلق على حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمى يرفض الحكم بما أنزل الله .

وكذلك يقول أخوه الشهيد السيد قطب رحمه الله، كما قرأت فى كثير من كتاباته :

لقد استمدوا هذا التعريف من واقع القرن العشرين المنبثق من فساد التصور فى العلم والمعرفة والتقدم والحضارة ، وما تمخض عن ذلك كله من فساد السلوك الشائع فى الجاهلية الأولى، والذى جاء الإسلام بإصلاحه .

ثم استعرض محمد قطب فى ذلك الكتاب المعسكرات الفكرية والسياسية والاقتصادية، ووقوفها أمام الإسلام الذى جاء لإنقاذ البشرية من تلك الظلمات إلى النور ومن ذلك الضلال إلى الهدى . ومن هذه الجاهلية كلها إلى الإسلام .

فالأستاذ محمد قطب قد بحث فى الأفق الأعلى من ناحية الغاية ، وأنا أبحث فى الأفق الأدنى من ناحية المبدأ .

على أنى قصدت إصلاح الأوضاع السيئة فى بلادى أولاً . وإن كان البحث لا يخلو من فائدة لكل مسلم فى كل بلد ، فالدعاة لهم نزعات مختلفة ومقاصد متباينة وكل يدعو إلى الله وإلى الإصلاح ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات .

* * *

الباب الثانى

الجاهلية فى القرآن

قررنا فيما سبق أن الجاهلية صفة أطلقها الإسلام على الرذائل والمفاسد والعصبيات، التى كانت العرب تتخلق بها قبل الإسلام، ولم يرد عند العرب فيما أعلم إطلاق هذه الصفة على أنفسهم قبل نزول القرآن ، لم يرد ذلك فى شعرهم ونثرهم وخطبهم ، لا فى مفاخراتهم ولا فى منافراتهم ، فلم يكونوا يذمون منافسيهم بها عندما يفاخرونهم بالفضائل ، كالشجاعة والكرم والمروءة ورجاحة العقل والذكاء .

إنما استعملها القرآن أولا ثم وردت فى أحاديث الرسول ﷺ ثانياً، ثم استفاض المسلمون فى استعمالها وإطلاقها على نحو ما أطلقها القرآن والحديث .

ولقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم أربع مرات مقرونة ببعض أخلاق وأحوال، ذمها الله ووبخ عليها ونهى عنها .

والأول: **منها ظن السوء بالله** الذى ينشأ من النفاق وعدم صحة الإيمان ، وضعف الثقة بالله، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾

[آل عمران : ١٥٤]

وتوعد الذين يظنون بالله ذلك الظن بقوله في سورة الفتح :-

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٦] .

وروى مسلم أن النبى ﷺ قال: « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله** » وروى الشيخان وأحمد حديثاً قدسيًّا فى مختلف الروايات ، ومتباين الطرائق يقول الله عز وجل: « **أنا عند ظن عبدى إن ظن خيراً فله ، وإن شرًّا فله** ».

على أن حسن الظن بالله إنما يقوم على الخوف والرجاء فلا يقوم على الغرور والرياء لحديث: « الكيس من دان نفسه وعمل لما

بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ». رواه أحمد والترمذى .

وكذلك نهى الإسلام عن سوء الظن بالغير، فقال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] . على أن سوء الظن بالغير يختلف عن سوء الظن بالنفس وبالأيام كل الاختلاف(١) فإن العاقل من لا يحسن الظن بنفسه، ولقد قال النبى يوسف عليه السلام :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وكذلك لا ينبغى أن يحسن الظن بالأيام فيحسبها دائماً تأتى بالخير وباليسر.

فإن سوء الظن بالنفس وبالأيام حيطة ويقظة .

---

(١) أما مدح الغير والثقة فيه وتقليده الأمانه قبل تجربته فذلك تسرع فى الحكم، وهو أيضاً غير جائز حتى لا يقول أخيراً كما قال شاعر :-

وأكثر من تلقى يسرك قوله ... ولكن قليل ما يسرك فعله
وقد كان حسن الظن بعض مذاهبى ... فأدبنى هذا الزمان وأهله

قال الشاعر : -

لا يأمن الدهر ذو بغى ولو ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل

وقال الطغرائى :

وحسن ظنك بالأيام معجزة فظن شراً وكن منها على وجل

فإن جميع الصحابة والخلفاء الراشدين المبشرين بالجنة فى حياتهم لم يغتروا بهذه البشارة بل ماتوا على الوجل والخوف من الله ، والندم على ما قدمت أيديهم والبكاء على ما فرطوا فى جنب الله فكيف بغير هؤلاء يحسن الظن بنفسه على نيل خير أو عبادة أو ولاية الله . نسأل الله حسن الخاتمة .

النوع الثانى : من أنواع الجاهلية فى القرآن الحكم بغير ما أنزل الله

لقد خلق الله العباد وأنزل عليهم الأحكام ، ولكن أهل الجاهلية ظلوا يتحاكمون إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً .

فينقسم المسلمون اليوم إزاء الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام :

قسم يدعو إلى فصل الدين عن الدولة وهى فكرة قامت فى أوربا ضد الدين المسيحى فى القرون الوسطى ، وبلغ صوتها العالم الإسلامى، فصار يردد صداها بعض رؤساء الحكومات الإسلامية ، مثل مصطفى أتاتورك التركى ومن على شاكلته .

وتغنى بها بعض مفكرى الإسلام مثل على عبد الرازق المصرى وهو أول من أثار غبار الشك حول طبيعة الحكومة فى الإسلام . وهو يرى أن القرآن يسمح بكل أنواع الحكومات لقوله :-

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٧] .

وهو يرى أولاً أن القرآن لم يأمر المسلمين بإقامة حكومة إسلامية، فالإسلام دين عالمى، والتزام العالم كله بحكومة واحدة أو سياسة مشتركة خارج عن طبيعة البشرية .

ويرى ثانياً ، أن النبى ما أوصى بالخلافة الدنيوية وإنما أوصى بالإمامة الدينية . وأن زعامة النبى دينية لا دنيوية ، وقد انتهت بموته ولم يكن لأحد أن يخلفه فى زعامته كما لا يخلفه أحد فى رسالته .

كما يرى أن بيعة أبى بكر بالخلافة بعد النبى كانت فكرة سياسية أنشأها العرب حكماً عربيًّا عنصريًّا، وقد أطال الكلام على هذا النمط فى كتابه (الإسلام وأصول الحكم).

وقد قام بالرد عليه جمهرة من علماء الإسلام ، وبينوا أن الإسلام دين ودولة، ومصحف وسيف، وأن القرآن والحديث دستور المسلمين فى كل شىء، وأن الخلفاء الراشدين قدوة صالحة لبناء الحكومة الإسلامية .

وهؤلاء هم القسم الثانى : ولا تزال هذه الدعوة هى الغاية التى يهدف إليها الدعاة والكتاب والمفكرون المسلمون اليوم، فى سائر حركاتهم ومنظماتهم ومؤتمراتهم.

أما القسم الثالث فيكتفى بتطبيق قسم للعبادات والأحوال الشخصية من أقسام الشريعة الإسلامية، ويرفض قسم المعاملات والجنايات ، ويرى أن الحكم الإسلامي فيها شديد وقاس لا يلائم الحضارة الحديثة ، لهذا يدعو إلى وضع العقوبات على الجرائم كما وضعها الغرب المسيحى ، ويستورد القانون الوطنى من وحى القوانين الغربية الوضعية لا السماوية المنزلة .

لهذا نرى أكثر الدول العربية تكتفى بتطبيق الحكم الإسلامى فى الأحوال الشخصية، والدول الإسلامية تابعة للدول العربية لأن الأخيرة هى الرأس والقلب والجهاز الذى تتحرك به الأولى .

ولقد وصف القرآن كل حكم بغير ما أنزل الله جاهلية بقوله: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٠] .

ثم نجد كُتَّاب آخرون نسجوا على منوال الخروج عن حكم الشريعة بشكل مموه غير مكشوف، أمثال خالد محمد خالد ـ المصرى وغيره ، فقام بالرد عليهم الكُتَّاب المخلصون أمثال الشيخ يوسف الدجوى والشيخ محمد بخيت المطيعى والسيد محب الدين الخطيب والشيخ محمد الغزالى والشيخ سيد قطب من الكُتَّاب المصريين ، والأستاذ مصطفى السباعى السورى وأبى الأعلى المودودى الباكستانى وأبى الحسن الندوى الهندى من غير المصريين.

أولئك الذين كشفوا النقاب عن مؤامرات الصليبيين ضد

الشريعة الإسلامية وأظهروا للناس ما انطوت عليه هذه الشريعة الغراء من قيم ومثل ومزايا بيضاء.

ثم استفاض الكُتَّاب والدعاة فى توضيح الشريعة ودعوة الدول والحكومات إلى تطبيقها فى جميع مجالات الحياة .

وهذه هى غاية الدعاة اليوم تتعالى بها أصواتهم فى جميع المؤتمرات والمنظمات وفى الطليعة منها (رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة) التى أصبحت اليوم تمثل دور القاطرة التى تجر حافلات المنظمات الإسلامية العالمية فنسأل الله أن يحقق بها الوحدة المنشودة والنصر المبين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله فتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

النوع الثالث : من الجاهلية تبرج النساء

وردت كلمة الجاهلية فى القرآن مقرونة بتبرج النساء عند قوله تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

قال بعض العلماء : كانت المرأة تخرج وتمشى بين يدى الرجال وكانت لها مشية تكسر وتغنج وكانت تلقى الخمار على

رأسها من غير شده فتبدى قلائدها وقرطها وعنقها وذلك هو تبرج الجاهلية الأولى .

وقال بعضهم : الجاهلية الأولى كانت بين نوح وإدريس، وكان بطنان من أولاد آدم يسكن أحدهما السهل والآخر الجبل وكان الجمال فى رجال الجبل ، والدمامة فى نسائهم ، والجمال فى نساء السهل والدمامة فى رجالهم ؛ فاحتال إبليس فى الجمع بين الفريقين بآلات اللهو والطرب فظهر أهل الجمال لأهل الدمامة فأغرى بعضهم ببعض فظهرت الفاحشة[١] .

كانت نساء العرب على هذه الجاهلية حتى جاء الإسلام وفرض الحجاب على نساء النبى وعلى نساء المؤمنين .

ولكن الفقهاء قد اختلفوا فى نوعية الحجاب المفروض على نساء النبى ونساء المؤمنين، فذهب بعضهم إلى خصوصية الحجاب المطلق لنساء النبى مع عدم نكاحهن لغيره من بعده بدليل قوله تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ثم بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن**

---

(١) تفسير ابن كثير عند تفسير الآية .

يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

ومما يدل على خصوصية الحجاب المطلق لنساء النبى حديث البخارى : «أن رسول الله ﷺ أردف الفضل بن عباس يوم النحر خلفه وفيه امرأة خشعمية ولم يأمرها بالحجاب» وكان هذا فى حجة الوداع.

وفى الإصابة لابن حجر : أن النعمان بن أبى الجون الكندى لما عرض على رسول الله ابنته «أسماء» وارتضاها النبى زوجاً له فلما حملت إلى رسول الله ﷺ صرفه الله عنها بكيد النساء ولم يبن بها فأقامت بالمدينة لا تبرحها حتى إذا كانت فى عهد سيدنا عمر تزوجها المهاجر بن أبى أمية، فأفزع عمر أن إحدى أمهات المؤمنين تزوجت بعد رسول الله فأرسلت إليه تقول: «والله ما ضرب عَلَيَّ الحجاب ولا سميت أم المؤمنين».

أما الحجاب العام فنصه فى القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا » وأشار إلى وجهه وكفيه » . متفق عليه .

وجاء فى نيل الأوطار أن المرأة تبدى من مواضع الزينة ماتدعو الحاجة إليه عند مزاولة الأشياء والبيع والشراء والشهادة فيكون ذلك مستثنى من عموم النهى عن إبداء مواضع الزينة .

ومن هنا ظهر أن المفروض على نساء المسلمين هو عدم التبرج بالزينة . وأنه يجوز لهن الخروج إلى مصالحهن ومزاولة

أعمال تناسبهن سواء أكان ذلك فى الليل أم فى النهار ، من غير تبرج بزينتهن ولا الخروج على آدابهن الإسلامية .

تبرج الجاهلية الثانية :

لقد تنبأ النبى ﷺ بما يحدث اليوم من التبرج الذى نشرته الحضارة الغربية باسم المدنية والتقدم ، وما هى إلا عودة إلى تبرج الجاهلية الأولى .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

ومن جهة أخرى ظهرت عادة التبرج فى غرب إفريقيا اليوم بصورة أبشع حيث تخرج البنات شبه عرايا وعليهن رياش الطيور وأصداف الدويبات يرقصن رقصة الجنون أمام الجمع الكبير من الناس تحت عنوان (الرقص الشعبى أو الثقافة الشعبية الوطنية) .

ومن ذلك كشف النساء رؤوسهن من غير غطاء إظهاراً

لعقاص شعورهن يسمونه بإحياء الموضة الإفريقية القديمة ، فعلى المسلمين أن يبتعدوا عن مثل هذا - قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[النور : ٦٣]

ذهاب النساء إلى المساجد :

ومن الجدير بالتعرض له في هذا الصدد مسألة ذهاب النساء إلى المساجد لأنها من المسائل الحيوية بالنسبة لتطوراتنا العصرية في الأوساط الإسلامية اتفق البخارى ومسلم على ما روى عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » .

واختص مسلم بما روى عن ابن عمر أيضاً « إيذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » .

وقال بلال بن عبد الله بن عمر : والله لنمنعهن ، فقال ابن عمر : أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول لا - والله لا أكلمك بعد اليوم .

عن أم هشام بنت حارثة قالت : « ما أخذت سورة ق إلا على لسان النبى ﷺ كان يخطب بها على المنبر يوم الجمعة » .

وعن أم عطيـة قـالت : « أمـرنا رسـول الله ﷺ فى الفطر والأضـحى أن نخـرج العـواتق والحـيض وذوات الخـدور ، ولكن الحيض يعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعـوة المسلمين. قلت : يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب قال لتلبسها أختها من جلبابها » متفق عليه .

وعن جابر قال : « شهدت العيد مع رسول الله ﷺ فبدأ الصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ثم قام متوكئاً على بلال، فأمر بتقوى الله وحث على طاعته ووعظ الناس وذكرهم ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم : فقامت امرأة من وسط النساء سعفاء الخدين فقالت : لِمَ يا رسول الله قال: لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير قال : فجعلن يتصدقن من حليهن فى ثوب بلال ومن قرطهن وخواتمهن » .

قال شراح الحديث: ووصف المرأة بأنها سعفاء الخدين(١) دليل على عدم غطاء وجهها. ولم يأمرها النبى بغطاء وجهها.

---

(١) وفى رواية : حسناء .

انظر نيل الأوطار للشوكانى وسبل السلام وغيرهما من كتب الحديث .

وبناء على هذه الأحاديث يرى بعض العلماء جواز ذهابهن إلى المساجد سواء فى الليل أو فى النهار ، ما دام لهن باب خاص ومكان خاص .

قال شيخنا آدم نمعاج رحمه الله :

لم يجز الحضور للنسوان ما لم يكن خصص بالمكان

دليل منعهن :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المسجد كما منعت نساء بنى إسرائيل » رواه مسلم .

وقد أخذ بعض الفقهاء المنع من هذا ففى [سبل السلام] أن قول عائشة لو أدرك رسول الله ما أحدث النساء لمنعهن المسجد لا يدل على تحريم خروجهن ولا على نسخ الأمر به ، بل دليل على أنهن لم يمنعن، لأنه لم يمنعهن رسول الله ﷺ بل أمرنا بإخراجهن » .

قلت : والحق أن عائشة رضى الله عنها وإن كانت فقيهة

عالمة، لكنها ليس لها حق التشريع والنسخ وليست معصومة من الخطأ فى الاجتهاد، ودليل جواز خطئها هو خروجها إلى البصرة قائدة للجيش فى وقعة الجمل، ومحاورة الأحنف بن قيس معها فى المسألة فى قوله: أعندك عهد من رسول الله ﷺ فى خروجك هذا؟ قالت: لا، ثم قال: أعندك عهد من رسول الله ﷺ أنك معصومة من الخطأ ؟ قالت : لا .

النوع الرابع : حمية الجاهلية

وردت هذه الكلمة فى سورة الفتح عند قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

[الفتح : ٢٦]

وفسرها المفسرون بمرادفات لها كثيرة منها الأنفة والثورة الغضبية التى تحمل على السب والضرب والقتل وأخذ الثأر والانتحار خوفاً من العار . ومنها العصبية. وقد سئل رسول الله ﷺ عنها فقال: «أن وقد نهى النبى ﷺ عن القومية والعصبية، لأن الإسلام جاء بتوحيد البشرية أمام خالقهم الواحد الأحد وقال: «تعين قومك على الظلم» .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ولقول النبى ﷺ : «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية» رواه أبو داود.

وروى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال:

اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجرى يا للمهاجرين، ونادى الأنصارى يا للأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية؛ قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر فقال: لا بأس ولينصرن الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً. إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلوماً فلينصره».

وإن كانت رائحة هذه العصبية لا تزال تظهر فى أشكال مختلفة بين الأمم العربية والإسلامية حتى اليوم . فصاروا ينفثون روح القومية العربية بين العرب وبين الأمم الإسلامية ولولا قوة الدعوة الإسلامية ودعوة التضامن الإسلامى التى حمل لواءها الملك فيصل الشهيد والملك خالد من بعده ، وسائر إخوانهم

العاملين معهم لرجع العرب والمسلمون يضرب بعضهم رقاب بعض من أجل العصبة القومية، كما حدث أخيراً بين السوريين واللبنانين وكما حدث مرة بين اليمن ومصر، وكما حدث بين الأردن والفدائيين.

شكر الله سعى دعاة الإصلاح والوئام والسلام بين أبناء العروبة وأبناء الإسلام.

ومن آثار الجاهلية التى لاتزال قوية فى نيجيريا المسلمة هى التفرقة العنصرية بين القبائل المسلمة، فترى البرناويين يرون أنفسهم أحسن قبائل نيجيريا، ثم يأتى الفلاتيون يعتقدون أنهم سادة أهل البلاد، فيجب أن يعضوا عليها بالنواجذ مهما غلا الثمن ثم ترى قبائل هوسا أنهم أحسن من قبائل يوربا، ولم تستطع الروح الإسلامية حتى الآن أن تنزع من قلوبهم هذه العصبيات حتى فى المجال الدينى. ومن مظاهر ذلك أنه قلما تجد هوساويا أو فلاتيا يصلى وراء إمام يورباوى، حتى ولو كان يعيش بين أوساط يورباوية فى بلاد يوربا.

وإنما يبنون لقبيلتهم مسجداً خاصًّا ولو بجانب مسجد أهل

البلد كمسجد الضرار لأنهم يزكون أنفسهم فى إيمانهم وعقيدتهم وعبادتهم ويتهمون اليوربا بالنفاق والرياء وضعف الإيمان . وهذا ما لا يوجد بين المسيحيين فى كنائسهم، وهذا داء عضال انفرد به مسلمو نيجيريا. وهذه حقيقة لا ينكرها أحد من الناس إلا مكابر. اللهم إلا ما كان حديثاً من بعض المثقفين فى لاغوس وأغيغى يعملون لإزالتها فى الأوساط السياسية .

وبدأ الشعور من علماء هوسا كالشيخ محمد ناصر كيرا والقاضى أبو بكر قومى وغيرهم . فبدأوا يحاربون هذه العصبية بطريق الحكمة ، خصوصاً عند إنشاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، يضم سائر المنظمات من شتى القبائل ، فعسى أن يفتح هذا باب التفاهم وإزالة الفوارق بين المسلمين.

* * *

من التقاليد الجاهلية الممقوتة
وأد البنات أو قتل الأولاد خشية إملاق

أما وأد البنات : فهو دفنهن فى التراب حيات ، إما من خوف العار أو خوف الفقر، وكان أول من سن ذلك : قيس ابن عاصم المنقرى ، وقد كان من أعيان قومه . وحاصله أن النعمان بن المنذر غزا قوم قيس وسبى نساءهم وأولادهم ، فلما انتهت الحرب وطلب أهل السبايا بناتهم ، قال النعمان : كل امرأة اختارت أباها ردت إليه وكل من اختارت صاحبها تركت معه . فكلهن اخترن آباءهن إلا ابنة قيس فإنها اختارت صاحبها عمرو ابن الجموح فنذر قيس بن عاصم أنه لا يولد له ابنة إلا قتلها مدفوعاً بحمية الغيرة على شرفه وعرضه، ومن ثَمَّ صارت عند القوم عادة .

وكان صعصعة جد الفرزدق الشاعر الإسلامى أول من فكر فى إحياء الموءودة حتى قيل إنه أحيا ثلاثمائة موءودة .

ولهذا يقول الفرزدق مفتخراً به فى قوله :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد ولم يوأد

ولما جاء الإسلام أبطل تلك العادة الشنيعة ، وندد بها القرآن في قوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾

[التكوير: ٨، ٩]

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

ولقد عادت هذه العادة إلى الظهور في قرننا هذا في صورتين مقنعتين :

أولاهما : في تحريم تعليم البنات ، فإن التجهيل إماتة ووأد، والتعليم إحياء وإنعاش. لهذا يعد التعليم ونشره في عداد معجزات النبي محمد ﷺ كإحياء الموتى معجزة لعيسى عليه السلام . قال شوقي :

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له   وأنت أحييت أجيالا من الرمم

والجهل موت فإن أوتيت معجزة   فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

وثانيتهما : في تحديد النسل، فقد انقسم الفقهاء في المسألة إلى قسمين: قسم حرم تحديد النسل تحريماً جازماً بتلك الآيات السابقة ، ثم بالقول بتحريم العزل.

ما هو العزل ؟

العـزل هو أن يجـامع الرجل وإذا قـارب الإنزال نزع أو أنزل خـارجـاً. والذين حـرمـوا العـزل إنما حـرمـوه بحـديث : «إنه الوأد الخفى» أخرجه مسلم، لأنه طريق إلى قطع النسل كما يقتل المولود بالوأد.

والذين أباحـوه إنما أباحـوه ، لما ورد أيضـاً عن أبى سعـيد الخدرى قال: أصبنا سبياً فكنا نعزل فسألنا رسول الله ﷺ فقال: «أو إنكم لتفعلون. قالها ثلاث، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هى كائنة» رواه البخارى .

وعن جابر قال: كنا نعزل والقرآن ينزل .

ومما يلحق بوأد البنات فى جاهلية مصر ما ذكره غير واحد من المؤرخين[١] : أن عـمـرو بن العـاص لما فـتح مـصـر أتاه أهلهـا وقالوا: إنهم لهم عـادة يجـرى بهـا النيل وهى أن يلقوا فيه جارية بما عليـهـا من الحلى والحلل، فـقـال عـمـرو : هذا لا يكون فى الإسلام.

---

(١) وإن كنا نشك فى الحادثة من حيث سندها .

فأقاموا ثلاثة أشهر لا يجرى النيل حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو بذلك إلى الخليفة فبعث إليهم بطاقة كتب فيها ما يأتى :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد : فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » .

ولما جاءت البطاقة ألقوها فى النيل فأصبحوا فى اليوم التالى وقد أجراه الله ستة عشر ذراعًا فى ليلة واحدة . وبهذا أبطل سيدنا عمر هذه الجاهلية الشنيعة بفضل الإسلام .

ومن الجاهلية ما سماه القرآن رجساً من عمل الشيطان :

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠]

أولها الخمر فقد حرم الإسلام كثيره وقليله ظاهره وباطنه، وقد جاء فى الحديث قوله ﷺ : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » متفق عليه، وقوله : « كل مسكر حرام »، وقوله ﷺ : « لعن الله فى

الخمر عشرة، عاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه،وبائعها ومبتاعها وواهبها وآكل ثمنها» أخرجه الترمذى.

الميسر :

ضرب من القمار كانوا يستعملونه فى اقتسام لحوم الذبائح بالأقداح، وكان لكل قدح نصيب معلوم.وهى إحدى عشر قدحاً سبعة تربح إن فازت وعليه الغرم إن خابت.

وأربعة لا تربح ولا تخسر .

فالسبعة هى الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى وهو السابع الذى يضرب به المثل ويقال: فاز بالقدح المعلى.

الأزلام :

جمع زلم وهو القدح الذى لا ريش عليه ، والأزلام جمع وهى أقداح صغيرة مكتوب على بعضها افعل وعلى البعض الآخر لا تفعل، وعلى الباقى نعم أو لا، وإذا أراد أحدهم سفراً أتى سادن الأوثان ليضرب له بتلك الأقداح ويقول: اللهم أيها كان خيراً له فأخرجه فما خرج وجب عليه العمل به .

وإذا اختلف رجلان من العرب على حق اختار كل واحد منهما قدحاً باسم خاص فمن خرج قدحه فهو صاحب الحق .

لهذا أبطلها الإسلام وسماها رجساً من عمل الشيطان .

* * *

القرعة جائزة

أبطل الإسلام الأزلام وأباح الاستخارة والقرعة لكل مسلم وقع فى حيرة من أمره وأراد أن يستخير الله، لأن الأزلام من رواسب الوثنية، أما الاستخارة والقرعة فهما من الاستشارة.

وعن عائشة رضى الله عنها «أن النبى ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه» رواه أبو داود.

وأنا لم أقف فى القرعة المشروعة[1] على كيفية معينة وإنما تطلق على كل ما يصدق عليه الكلمة، والقرعة : من قرع السهم القرطاس إذا أصابه .

وجاء فى بعض تفاسير القرآن فى كفالة مريم أن أهلها

---

(١) ولعلها تفهم من قول عائشة رضى الله عنها: «فأيتهن خرج سهمها» فهى سهام توضع في خفاء، ثم يمد الرسول ﷺ أو من يأمره بذلك يده فيستخرج سهماً منها.

اختصموا فيمن يكفلها فاتفقوا على الاقتراع وألقوا أقلامهم فى نهر الأردن فكانت مريم نصيب من ظل قلمه طافياً على الماء ، كما جاء فى قرعة قوم يونس أنهم كانوا يكتبون أسماء كل من كان فى السفينة فى ورقة ويلقونها فى الماء فكل من غاصت ورقته فى الماء فهو المطلوب .

وقال الدكتور أحمد أمين فى كتابه « قاموس العادات » :

القرعة عند المصريين ، أن يكتب فى إحدى ورقتين نعم . وفى الأخرى لا ، ثم يطبقهما ويأخذ إحداهما .

أو يفتح مصحفاً حيثما اتفق ويقرأ الآية التى يقع عليها النظر، ويستنتج منها العمل أو عدمه ، ولم يعلق الدكتور على كلا الوجهين بالجواز أو بالحظر وليته فعل ذلك وكفانا مؤونة البحث لأنه حجة التاريخ الإسلامى فى فجره ، وضحاه وظهره .

* * *

الاستخارة مشروعة

روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين ثم ليقل :

«اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . . .

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى فيسره لى، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به» ويسمى حاجته فى أثناء دعائه .

ولعل هذه هى الطريقة التى كان يقترع بها رسول الله ﷺ ، وزاد بعض العلماء : أن يصلى المستخير هذه الصلاة بالليل قبل النوم ثم ينوى مع الدعاء المذكور النية الآتية – ولم نر ذلك منسوباً إلى النبى والصحابة فى نص صحيح .

«اللهم إن كان هذا الأمر خيراً لى فأرنى فى منامى بياضاً أو خضرة أو ماء جارياً. وإن كان شرًّا فأرنى فى منامى سواداً أو دخاناً أو حمرة» .

* * *

الجاهلية المندرسة

ومن الجاهلية التى بقى ذكرها فى القرآن ولم يبق أثرها إلا قليلاً فى البلدان : البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى .

ولعلها أكثر انتشاراً عند العرب لأنهم أكثر تعلقاً بالإبل ثم يباقى الأنعام .

والبحيرة : هى الناقة تلد خمسة أبطن فإن كان الخامس أنثى شقوا أذنها وتركوها من غير أن يحملوا عليها شيئاً ، وإذا ذبحوها لا يذكرون اسم الله عليها وحرموها على النساء .

السائبة : هى بهيمة الأنعام ينذر الرجل أنه إذا برئ من المرض يتركها لينتفع بها جميع الرجال دون النساء ولا يركبون ظهرها .

ولقد ألحق شيخ الإسلام ابن تيمية بالسوائب النذر لأصحاب القبور بقوله : وينذرون أولادهم للمقبور ويسيبون له السوائب من البقر والغنم وغيرها ، كما كان المشركون يسيبون لطواغيتهم وقرأ قوله تعالى : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ** ﴾ [المائدة : ١٠٣] . وذلك تحت عنوان : الجاهلية الثانية من كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » .

الوصيلة : هى الشاة إذا ولدت سبعة أبطن وكان السابع ذكراً ذبح، وإن كان السابع أنثى تركت فلا تذبح وينتفع بها الرجال دون النساء ، وإن كان السابع توأماً قالوا : وصلت أخاها فلا تذبح ، وإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء ، وقيل : هى التى تلد أمها اثنين فى بطن فيجعل صاحبها الإناث للأصنام ولنفسه الذكور ، وإذا ولد معها الذكر يقول قد وصلت أخاها فيتركها فلا ينتفع بها .

الحامى : إذا صار للحمل عشرة أبطن منعوا ظهره وقالوا : قد حمى ظهره فيتركونه لأصنامهم ولا يحمل أحدعليه ولا ينتفع به فى شىء ولا يمنعونه من ماء ولا من رعى .

تلك من الجاهلية التى بقى ذكرها فى القرآن تحت قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾

[المائدة : ١٠٣]

وإذ لم يزل ذكرها فى القرآن وجب علينا تعريفها للناس، ولو لم يكن أثرها فى البلدان.

الباب الثالث

أصول الجاهلية كما فى الحديث النبوى

وردت فى أحاديث النبى ﷺ كلمات عن الجاهلية ذكر فيها أوصافها وأحوالها منها ما مدحها النبى وذكرها بخير كمكارم الأخلاق ، ومنها ما ذمها وأبطلها . أما ما ذمها النبى فتتلخص فى الأمور الآتية :—

التفرقة العنصرية وعدم الرضا بقضاء الله واعتقاد التأثير لما لا تأثير له على الكون. والحديث الآتى يشمل تلك الأصول الأربعة وهو قوله ﷺ :

« أربعة فى أمتى من أمر الجاهلية :

الفخر بالأنساب والطعن فى الأحساب . والنياحة على الميت والاستسقاء بالنجوم » متفق عليه .

الأول والثانى : هما الفخر بالأنساب والطعن فى الأحساب .

النسب : ما يميز الإنسان عن غيره من أب وأم وحى وقبيل وبلد .

الحسب : هو الشرف الثابت للإنسان أو لآبائه أو ما يعد له من المآثر والمناقب وعليه قول الشاعر:

ومن كان ذا نسب كريم ولم يكن   له حسب كان اللئيم المذمما

كان العرب فى الجاهلية يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم ويطعنون فى أنساب غيرهم. لذلك كانوا يحفظون الأنساب ومآثر الأجداد للتفاخر بها خصوصاً على ألسنة الشعراء فى الأسواق كما كانوا يفعلون فى عكاظ وذى المجاز ومنى .

فجاء القرآن ينهاهم عن ذلك ويقول فى النهى عن الفخر بالحسب : ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] ﴿ **وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد : ٢٣] .

ويقول فى النهى عن الطعن فى الأنساب : ﴿ **لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ** ﴾ [الحجرات : ١١] .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون في الحج فيذكرون أيام آبائهم وما يعدون من أنسابهم يومهم أجمع فأنزل الله على رسوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ويلحق بهذا أحاديث أخرى كثيرة منها، ما رواه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بآبائهم إنما هم فحم من جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بآنفها النتن».

ومنها ما رواه الشيخان عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سبيت رجلاً (وهو بلال) فعيرته بأمه (يا ابن السوداء) فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية».

قال أبو ذر: أعلى كبر سني يا رسول الله؟ قال: «نعم، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت

يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

ومعنى قوله : إنك امرؤ فيك جاهلية ، بمعنى بقى فيك خلق من أخلاق الجاهلية ، وهو الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب ، وفى رواية « ما كنت أحسب أنه بقى فى صدرك من كبر الجاهلية شىء » ، فألقى أبو ذر نفسه إلى الأرض ثم وضع خده على التراب وقال : والله لا أرفع خدى منها حتى يطأ بلال خدى بقدميه ، ولم يزل به حتى وطئ بلال خده بقدميه تكفيراً لذنبه . فيالإيمان الرعيل الأول من المسلمين . ومنها ما روى الحافظ ابن عساكر قال :

جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى فقال : هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى النبى ﷺ) فما بال هذا وهذا (مشيراً إلى غير العرب من الجالسين) فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فأخذ بتلابيبه ، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره بمقاله .

فقام النبى ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد، ثم نودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم قائلاً : « يا أيها الناس إن الرب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى ».

وفى عهد سيدنا عمر تفاخر قوم أمام سلمان الفارسى بأنسابهم ، هذا يقول أنا ابن فلان ابن فلان وهذا يقول أنا ابن فلان ابن فلان وسلمان صامت لا يتكلم حتى قال له أحدهم ابن من أنت ؟ فقال سلمان أنا ابن الإسلام ثم أضاف منشداً :

أبى الإسلام لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

فبلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فبكى من فرط تأثره بهذه الكلمة وقال : وأنا أبى الإسلام ، وكررها ثلاثاً .

الأصل الثالث من أصول الجاهلية :

النياحة على الميت

كانت نساء العرب فى الجاهلية يبكين بالصراخ والعويل ويدعون على أنفسهن بالويل والثبور نحو : واجبلاه واسنداه إذا مات لهن زوج أو أخ أو أب أو قريب ويحلقن رؤوسهن ويشققن جيوبهن ويلبسن أسوأ ثيابهن وينشرن شعورهن، فنهى الإسلام عنها وسماها دعوى الجاهلية ، وفى القرآن :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

ويقول الحديث : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » متفق عليه .

وجاء أيضاً عن أبى موسى الأشعرى « أن رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة » وفى أبى داود قالت إحدى النساء المبايعات « كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا نعصيه فى معروف وأن لا نخمش وجها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيباً ولا ننشر شعراً » .

المآتم من النياحة :

كان الناس يجتمعون على أهل الميت للتعزية فيجالسوهم

أياماً وليالى، ولا ينصرفون إلى حوائجهم ، فيقوم أهل الميت بواجب الضيافة من تقديم الطعام للمعزين فيزيدونهم مصيبة على مصيبة ويجددون لهم الحزن ويكلفونهم المؤونة، ولهذا جاء فى الحديث عن جرير يقول: «كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة». رواه أحمد.

إحداد الرجال والنساء على الميت من النياحة :

كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها دخلت بيتاً صغيراً حقيراً ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم يؤتى لها بدابة من حمار أو شاة أو طير فتمسح به فرجها . وربما ماتت الدابة فى وقتها . ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع ما شاءت من زينة ، ويوجد مثل ذلك فى جاهلية غرب إفريقيا إلى عهد بعيد .

ولما جاء الإسلام وأبطل تلك التقاليد وأبقى ما فى الإحداد من أمارات الرحمة والوفاء بين الزوجين، وفرض العدة على المرأة ليتم به براءة الرحم.

وحرم على النساء الإحداد لموت أحد فوق ثلاثة أيام غير

الزوج الذى عليها أن تحد عنه أربعة أشهر وعشراً. وعلى ذلك يسير المسلمون فى كل مكان .

حتى دخلت التقاليد الغربية إلى العالم الإسلامى وإلى نيجيريا، فصارت المرأة تلبس السواد طول السنة أو نصف السنة إعلاناً على الناس بأنها أرملة مات عنها زوجها. وذلك من تقاليد الجاهلية الثانية الواردة إلينا من البلاد الغربية المسيحية.

وصول أجر الصدقة وأثر الدعاء للميت :

اعتاد المسلمون فى نيجيريا وما حولها أن يجتمعوا للدعاء للميت وأن يتصدقوا له على الفقراء والمساكين وإهداء ثوابها للميت .

وربما بدأوا ذلك من يوم الوفاة حتى اليوم الثالث أو اليوم السابع، ويتأولون ذلك بأنه ليستدرك الدعاء من فاتته الجنازة من البعداء.

فانقسم العلماء فى الأمر إلى قسمين :

قسم يمنعه ويحرمه ، ومنهم فى هذا العصر : الشيخ المختار

ساليكوتو فى مدينة إلورن، والشيخ صلاح الدين اللناسى فى إبادن، والشيخ كمال الدين الهادى الألورى.

وقسم يجيزه منهم أكثر علماء إلورن وإبان ويحتجون بالأدلة التالية :

أولاً : قالوا إنه لا شك فى أن الميت ينتفع بعمل الأحياء إن كان صالحاً، كما يتضرر به إن كان بكاء أو فساداً ، وصح أن الميت ليعذب ببكاء الأحياء عليه .

ثانياً : قالوا بأنه فيما ورد من الحديث القائل : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» .

وأن النبى ﷺ قال : «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» .

ثالثاً : قالوا لولا أن الميت ينتفع بعمل الأحياء لما شرعت صلاة الجنازة وردوا استدلال قوم بأن الآية ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ** ﴾ [النجم : ٣٩ - ٤١]

فهذا دليل على أن الميت لا ينتفع بعمل الأحياء .

قالوا : إن الآية صريحة فى الكافر الصريح . أما المؤمن فإنه ينتفع بدعاء إخوانه المؤمنين لقوله تعالى حكاية عن المؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾

[الحشر : ١٠]

ولأن الله أمر الولد أن يدعو لوالديه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤] .

وفى حديث دعاء زيارة القبور : «السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر» رواه الترمذى .

ما جاء فى إطعام أهل الميت لوصول ثوابه إليه :

جاء فى كتاب « صفوة التصوف » للحافظ المقدسى بالقرن الخامس، قال: فيما يسمونه العرس وذلك لأحد أمرين[1] :

أحدهما : تخفيف ما ألم بالناس من الحزن .

وثانيهما : إيصال أجر الصدقة للميت فى حال الغربة لينتفع به عند سؤال القبر. عن سفيان بن عيينة قال :

(١) وقد انتقده ابن الجوزى فى تلبيس إبليس، وقال: إنه لا يحتج به كما انتقد طعام العرس، هذا وإليه أميل.

حدثنا جعفر عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال: لما جاء نعي جعفر قال النبي: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنه أتاهم أمر يشغلهم أو أتاهم ما يشغلهم» (متفق عليه)[١].

وقال أيضاً: إنه ورد عن رسول الله ﷺ: «أسرع صدقة تصعد إلى السماء أن يصنع الرجل طعاماً طيباً ثم يدعو إليه ناساً من إخوانه».

ثم استشهدوا بما يروى عن سعد بن عبادة أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت، فأى صدقة أفضل؟ قال: الماء، فحفر بئراً، وقال: هذه لأم سعد».

وبما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه».

وبما جاء في صفوة التصوف للمقدسي عن خارجة بن زيد ابن ثابت أنه قال: «توفي أبي قبل أن تصفر الشمس وكان من رأيي دفنه قبل أن أصبح، فجاءت الأنصار فقالت: لا تدفن

(١) إن هذا الحديث لا يؤيد إطعام أهل الميت للزوار بل إطعام الجيران لأهل الميت.

إلا نهاراً ليجتمع الناس، فسمع مروان الأصوات فأقبل يمشى حتى دخل عليّ فقال: عزيمة منى أن لا يدفن حتى يصبح فلما أصبحنا غسلناه ثلاثاً الأولى بالماء، والثانية بالماء والسدر ، والثالثة بالماء والكافور ، وكفناه فى ثلاثة أثواب : أحدها برد كان كساه إياه معاوية فصلينا عليه بعد طلوع الشمس وصلى عليه مروان ابن الحكم، وأرسل مروان بحور (البقر) فنحرت وأطعم الناس وغلبنا النساء فبكين ثلاثاً.

ثم احتج المؤيدون لهذا المذهب بما روى مسلم عن عمرو ابن العاص قال: إذا دفنتمونى فأقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأعلم ما أراجع به رسل ربى ».

ومنها ما أخرجه النسائى فى باب الصيام والصلاة عن الغير قال: «لا يصوم أحد عن أحد ولا يصلى أحد عن أحد ولكن يطعم عنه».

وما جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم».

اعتمد هذا الفريق على هذه الأحاديث جملة وما يشاكلها، كما اعتمدوا على استحباب التصدق بالطعام على الفقراء من بعد الدفن كل يوم حتى سبعة أيام لينتفع الميت بالصدقة عند مراجعة سؤال القبر، بما رواه السيوطي فى «التثبيت عند التبييت» من قوله:

يكرر السؤال للأنام — فيما رووا فى سبعة أيام
كذا رواه أحمد بن حنبل — فى الزهد عن طاووس الحبر العلى
وبعده أبو نعيم خرجه — فى حلية فيا لها من درجة
إسناده قد صح وهو مرسل — وقد يرى من جهة يتصل
وحكمه الرفع كما قد قالوا — إذ ليس للراوى به مجال
وفيه إن قد كانت الصحابه — يرون إطعاماً له استحبابه
فى طول تلك السبعة الأيام — معونة فى ذلك المقام
ومثل هذا جاء عن مجاهد — فيا له من عاضد وشاهد

ويضيفون إلى ذلك ما جاء عن ابن القيم فى المسألة الخامسة عشر من كتاب الروح حيث قال[١] : إن الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك ثم تسرح بعد ذلك

(١) كتاب الروح المنسوب إلى ابن القيم فيه أشياء ينبغى التأنى والتثبت عند نقلها وروايتها.

حيث شاءت، وفى الحلية لأبى نعيم عن عبد الله بن أحمد ابن حنبل عن هاشم عن سفيان بن عيينة أنه قال : قال طاووس : «إن الموتى يفتنون في قبورهم سبعاً فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام» .

هذه حجج الذين يؤيدون التصدق للميت من يوم الدفن حتى اليوم السابع، حيث يجتمع العلماء للدعاء الختامى كاجتماعهم ليوم الدفن.

ولكن الأمر قد تسرب إليه الفساد واستفحل حتى عجز العلماء عن إيقافه وإصلاحه خصوصاً فى بلاد يوربا، لذلك قام الوعاظ بمنعه وتحريمه لأنه انقلب إلى وليمة فى بلاد يوربا .

* * *

اجتماع الدعاء للميت يوم سابع الوفاة

ذلك أن المسلم إذا مات عن بنين كانوا يحضرون شهوداً ويحضر الإمام وجماعته لتجهيزة والصلاة عليه ودفنه ثم يجلسون للتعزية وللوعظ والتذكير بأن هذا سيكون حتماً عاقبة كل أحد، ويقولون: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١] .

ثم يقولون استغفروا لأخيكم فإنه الآن يسأل وسلوا له التثبيت وتصدقوا له، ومن هنا يقوم أفراد العائلة والأسرة والمعارف والأصدقاء بتقديم ما يتيسر لكل واحد إلى الإمام وجماعته **فيأمر الإمام الجماعة بقراءة يس، أو تبارك أو شيء من القرآن أو القرآن كله أو الذكر بعدد من كلمة الشهادة ويهبون ثوابها وثواب الصدقات إلى الميت ، فيوزع هذه الصدقات على الفقراء في المجلس** ، هكذا بدأ الأمر بالتدريج .

ثم يصنع أقارب الميت الطعام كل يوم يرسلون به إلى الفقراء في المساجد والزوايا والمدارس، حتى اليوم السابع فيعود الإمام وجماعته للدعاء للميت كاليوم الأول .

هذه هي الحالة الشائعة في بلاد يوربا وما يجاورها من بلاد غرب إفريقيا، ثم انقلب الأمر من سيئ إلى أسوأ حيث تسربت إليه الجاهلية الأولى المنتشرة بين الكفار قبل انتشار الإسلام .

ويجب على الدعاة أن يحاربوا هذه الجاهلية الثانية كل المحاربة لأنها اليوم أكثر انتشاراً في الأوساط الإسلامية اليورباوية .

الجنازة كالوليمة فى بلاد يوربا

وهى من رواسب الجاهلية الأولى التى تسربت إلى الأوساط الإسلامية من جراء احتكاكهم واختلاطهم بالوثنيين والنصارى لأن أهل الأديان الثلاثة كانوا يتداخلون فيما بينهم فى الأسرة الواحدة ويختلطون فى السوق والمعمل والبلد والشارع ، وحاصله أن تشييع المسافر عادة متأصلة فى نفوس أهل بلاد يوربا كاستقباله بموكب عظيم حسب مكانته الاجتماعية .

وكان موتى ملوك يوربا القدماء يشيعون إلى مقابرهم فى مواكب وحفلات، كما يقام لهم ذلك فى حياتهم ومراسم توليتهم مثل ما فى تقاليد الفراعنة المصريين، وإذا مات ملك من الملوك هيأ خلفه أو ابنه له عدداً من ضحايا الأبقار والأغنام لتكون له زاداً إلى العام الثانى .

وذلك أيضاً يشبه ما كانت العرب تفعله فى الجاهلية من العقر حيث إنهم كانوا ينحرون على قبور الموتى ويقولون إنه كان يعقرها للأضياف فى حياته، فكافئه بذلك بعد الموت أو مثل ما يذبح أمام النعش فجاء الإسلام ببطلان ذلك وقال النبى ﷺ : «لا عقر فى الإسلام»، رواه أبو داود .

وكانت ضحايا الأبقار والأغنام التى تقدم اليوم فى بلاد يوربا للموتى الملوك ، كانت فى الماضى السحيق ذبائح بشرية اعتقاداً منهم أن يكونوا له خدماً فى العالم الآخر.

وذلك لاعتقادهم أن من كان ملكاً فى هذا العالم لابد وأن يكون كذلك فى العالم الآخر، فيجب أن يبذل كل غال ونفيس لإقامة الحفلات له إلى أقصى حد .

لأن ذلك هو التشريف النهائى له ، وكانت هذه الحفلات أولا مقتصرة على الملوك والأثرياء والعظماء ثم امتدت إلى أفراد الناس فى كل قبيلة وأسرة لكسب السمعة والشرف لها .

وكان من مات وخلف ابناً أو أخًا فعلى هذا الخلف أن يقيم لجنازته حفلات التشريف النهائى، وكل من مات عنه والداه ولم يسبقهما بالموت فله أن يخرج على قومه ويباهيهم بالفرح والزينة ويطعم الطعام ويسقى الشراب .

وكان الأمر متوقفاً على قدر ثراء الخلف ثم تجاوز ذلك إلى حد المباراة والمنافسة والمغالاة حيث ينفق كل ذى سعة من سعته، أو من تركة الميت الراحل .

ومن كان ذا عسرة فعليه أن يستدين ويرهن للدين كل ما يملك من ديار وعقار حتى يستطيع أن يغسل عن نفسه وأسرته عار العجز عن إقامة التشريف النهائى لميته الراحل، وعار عجزه عن الشكر على أنه خلف والديه ، وإذا استطاع ذلك شمخ بأنفه بين أقرانه واختال فى مشيته وطرب ورقص وتغنى، بمدحته المغنون وذبح الذبائح ووزع الأطعمة والأشربة على المدعوين، ومن أجل دعوة الأقاصى والأدانى إلى تشييع الجنازة ابتكر المسيحيون ادخار موتاهم فى المستشفى ثلاثة أيام أو أسبوعاً ليتم الاستعداد الكامل لتلك المهازل.

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد سقط فى أيدى العلماء الذين كانوا يبيحون الاجتماع للدعاء يوم السابع فكفوا عن عمل ذلك.

وشر ما فى البدعة أنها تنتشر بسرعة حتى إنه بدأت مثل هذه العادة تجتاز حدود بلاد يوربا إلى بلاد هوسا ، حيث قرأت أخيراً للدكتور على أبى بكر فى كتابه (الثقافة العربية فى نيجيريا) أنه جرت مناظرات ومناقشات وردود بين علماء مدينة كانو حول الموضوع، ونورد شيئاً منها هنا مع الإيجاز :

يقول الشيخ آدم بن عبد الرحمن السيوطى من علماء حارة مادابو وهو يتزعم جناح إباحة الاجتماع للدعاء، ويقول فى كتاب أسماه حجج علماء مادابو قال: أما الدعاء للميت يوم ثالثه وسابعه وغير ذلك باجتماع الفقراء والمساكين فله برهان ودليل وهو ما فى شرح النفراوى فى باب ما يفعل بالمحتضر ما نصه : وأما ما يصنع أقارب الميت من الطعام وجمع الناس عليه فإن كان لقراءة القرآن ونحوها مما يرجى نفعه للميت فلا بأس به ، وأما لغير ذلك فيكره .

ثم قال المؤلف : فالطعام والفلوس حينئذ سواء إذ المراد إدخال السرور على قلوب الفقراء والمساكين ، ثم رأيت فى تنبيه المغتربين ما نصه : وكان سفيان الثورى يقول : إن الميت يفتتن فى قبره سبعة أيام ، ولذلك استحبوا التصدق عنه تلك المدة مساعدة له حتى يلقن حجته .

هذا ما يحتج به علماء كانو الذين يبيحون الأمر، وقد حررنا فيما مضى جميع ذلك من أساسه .

فانحاز طائفة من علماء كانو إلى هذا الرأى وأيدوه وأثنوا

عليه حتى قرظوا كتابه ذلك بقصائد أوردها الدكتور على أبو بكر فى كتابه .

أما الذين قاموا بالرد عليه فهم كثيرون منهم الشيخ محمد الثانى بن الحسن الكافنغى، فى كتاب سماه الأدلة السنية فى الرد على الطائفة البدعية، وخلاصة رده فى ثلاث نقاط :

أحدها : عدم جواز تعيين يوم واحد للتصدق للميت .

ثانيها : ألا يخرج شىء من تركة الميت غير مؤن تجهيزه ودفنه وقضاء دينه الذى عليه إن كان عليه دين .

وأنه لا بأس بالتصدق له بالشىء اليسير من ماله إذا وصى به فيما دون الثلث ثم يذهب ما بقى للورثة .

ثالثها : عدم جواز إقامة النساء مآتم هى أشبه شىء بالحفلات فى سابع يوم الوفاة وغير ذلك لما يترتب عليه من مفسدة وانحراف[١] .

ويقول الشيخ محمود بن الحسين فى أبيات :

---

(١) ص ٣١٤ على أبو بكر فى الثقافة العربية بنيجيريا.

تصدق يا أخى للميت سرا ... بمالك إن تكن نفعا تروم
ولا تقرب إذا لم يوص ميت ... من المتروك شيئاً فالعليم
نهى عن أكل أموال اليتامى ... وفى هذا أتى زجر عظيم
تصدق يا أخى فى أى يوم ... تريد تصدقا دع من يهيم
يوقتها لثالث يوم موت ... وسابعه وذا غلط ذميم

جزى الله المنافحين عن الإسلام فى كل مكان وزمان خير الجزاء.

* * *

رثاء الميت ليس من النياحة

التأبين والندبة والرثاء ليس من دعاوى الجاهلية الممقوتة لأنها كالثناء والدعاء للميت، عن أنس قال: «مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبى ﷺ وجبت ، ثم مروا باخرى فأثنوا عليها شراً، فقال النبى ﷺ وجبت، قال عمر: ما وجبت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض» متفق عليه.

أما التأبين فهو الثناء على المرء بعد موته .

ولما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى أقبل أبو بكر رضى الله عنه من بستانه بالسنح (ضاحية بالمدينة) ودخل عليه وكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكي وقال: بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا، وقال عمر رضى الله عنه مثل ذلك.

وأما الندبة فقد ندبته السيدة فاطمة بقولها:

«يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه» رواه البخارى.

أما الرثاء فهو الثناء شعراً فقد رثته السيدة صفية بنت عبد المطلب:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا براً ولم تك جافيا
وكنت رحيماً هادياً ومعلماً ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا
فدى لرسول الله أمى وخالتى ... وعمى وخالى ثم نفسى وماليا
ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها ... لكان رسول الله حيا وباقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ... وتبقى المعاصى والذنوب كما هيا
ولو أن رب الناس أبقى نبينا ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا

روى محمد بن عمر الواقدى عن رجاله، قال أبو بكر الصديق يرثى رسول الله ﷺ :

يا عين فابكى ولا تسأمى ... وحق البكاء على السيد
على خير خندف عند البلا ... ء أمسى يغيب فى الملحد
فصلى المليك ولى العباد ... ورب البلاد على أحمد
فكيف الحياة لفقد الحبيب ... وزين المعاشر فى المشهد
فليت الممات لنا كلنا ... وكنا جميعاً مع المهتدى

وإلى هنا ينتهى ما أردنا بيانه، مما يجوز وما لا يجوز من التقاليد المشفوعة بالجنائز.

* * *

الأصل الرابع من أصول الجاهلية
الاستسقاء بالنجوم والأنواء

كانت العرب فى الجاهلية تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط والطالع من الكواكب المتفاعلة بين منازل القمر وبروج الشمس، على أنها من المؤثرات بطبعها والفاعلات لهذه التغييرات الجوية لا على أنها مسخرات بأمر الله.

لهذا جاء الإسلام بكفر من ينسب ذلك إلى الكواكب ولم ينسبها إلى الخالق المسخر المدبر المنعم .

« جاء فى الصحيحين أن النبى ﷺ، صلى بالناس صلاة الصبح بالحديبية فى إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل عليهم فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : قال ربكم أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر. فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكوكب. وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكوكب » .

وإنما يكفر من ينسب الأمطار والرياح إلى الكواكب، لأنه لم

ينسب النعمة إلى المنعم الحقيقى ولم يحمده على تلك النعمة . وتلك عادة جاهلية كفرية.

أما إذا كانت النسبة جارية على قانون السببية فلا بأس بذلك؛ فإن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها كما ربط الشبع بالأكل، والرى بالشرب، والولادة بالنكاح . وهلم جرا.

وإنما ينهى الإسلام عن أمرين :

أحدهما : إثبات التأثير لتلك الأشياء بطبعها وعدم الاعتقاد بأنها مسخرة بإذن خالقها.

وثانيهما : إثبات التأثير لما لا تأثير له على كل حال من الحقيقة والمجاز.

وينبثق من هذا الموضوع ثلاثة مباحث هامة :

المبحث الأول : فى أوضاع الكواكب والأجرام السماوية ذاتها .

المبحث الثانى : فى تأثير هذه الكواكب على الأجزاء والأجسام مطلقاً.

المبحث الثالث : فى تأثير الكواكب على حياة أفراد الناس.

المبحث الأول

فى عالم الفلك الجغرافى

إن الأجرام السماوية على ثلاثة أقسام :

أولها : النيزك أو المذنَّب وهو المسمى فى القرآن بالشهاب الذى يرمى به الشياطين.

وثانيها : الكواكب السيارة (أو المجموعة الشمسية) ويلحق بها ما يسميه القرآن بالنجوم.

وثالثها : الثوابت وهى ما سماه القرآن بالبروج والمنازل.

ما هى البروج وما هى المنازل ؟

البرج فى اللغة الحصن والقصر العالى.

والبرج فى الاصطلاح الجغرافى طريق الأرض ومدارها حول الشمس فى سيرها السنوى، أو طريق الشمس الظاهرة التى تقطع الفلك فيها فى (٣٦٥ يوماً) وبضع ساعات.

وتطلق البروج على مجموعة من الكواكب التى تظهر فى

صورة حيوان أو نبات من بعيد ويطلق على البرج اسم من أسماء الحيوانات والنباتات والأشياء الشبيهة بتلك الصورة وهى :

الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو، الحُوت .

والستة الأولى من هذه البروج شمال خط الاستواء. والستة الأخيرة جنوب خط الاستواء، وتسير الشمس فى كل برج شهراً ومنها ما يكون ثلاثين يوماً أو واحداً وثلاثين. وترتبط الفصول الأربعة بحلول الشمس فى هذه البروج .

وابتداء الربيع يكون بحلول الشمس فى الحمل والثور والجوزاء، وذلك من الثالث والعشرين من شهر مارس .

وابتداء الصيف يكون بحلول الشمس فى السرطان والأسد والسنبلة . ويصادف الثالث والعشرين من يونيو .

وابتداء الخريف بحلول الشمس فى الميزان والعقرب ويصادف ٢٤ من سبتمبر.

وابتداء الشتاء فى الجدى والدلو والحوت ويصادف ٢٣ من ديسمبر ويفعل الله ما يشاء فى تغيير هذه الفصول فى المناطق والبلاد، فلا تكون على شهور ثابتة سواء بسواء فى جميع العالم.

مبحث تأثير الشمس على الأجواء والأجسام

إن القاعدة العلمية الثابتة على الحس والتجربة قد برهنت على أن الأجرام السماوية القريبة من الأرض هى وحدها التى تؤثر على الأجواء والأجسام الكائنة على الأرض من حيوان ونبات .

ولقد أورد ابن خلدون كلام بطليموس فى المقدمة وقال : إن أثر النيرين فى العناصر والفصول والأمزجة لا يجحده أحد ، فالشمس تبدل الفصول والثمار والزروع .

والقمر يؤثر فى الرطوبات والماء والفواكه وغيرها، وذلك لأن الشمس سراج وهاج وطبيعتها حارة ساخنة تجفف الرطوبات وتحرق اليبوسات وتؤثر بحرارتها فى الأجواء والأجسام ، وتحدث الضرر البالغ فى جسم من يتعرض لها . وذلك لأن الشمس هى القاطرة التى تجر الأرض وسائر المجموعة المسماة بالكواكب السيارة الدائرة حولها .

فتنشأ الفصول الأربعة من أثر اقتراب الأرض منها أو من ابتعادها عنها، ولا شك أن للفصول الأربعة آثاراً ملموسة على الأرض وسكانها .

المبحث الثانى

تأثير القمر على الأجواء والأجسام

والقمر أقرب كوكب يجاور الأرض وأكثر تأثيراً على الأجسام.

القمر بارد رطب يحدث الرطوبة فى الأجواء والأجسام.

ويحدث ضرر البرد والزمهرير فى جسم كل حيوان يتعرض له.

وللقمر أيضاً تأثير على كثير من الأمراض العقلية فيزداد تهيجاً كالمصابين بالجنون والصَّرع عند ظهور الهلال أو البدر فى كل شهر.

وللقمر أيضاً علاقة قوية بالدورة الدموية التى تعتادها النساء فى كل شهر، كما أن الأمراض الجلدية تشتعل فى النصف الأول من الشهر أثناء زيادة ضوء القمر، وتنقص فى النصف الثانى عند نقصان الضوء.

وكذلك المد والجزر يحدثان من تجاذب الأرض والقمر فيتحرك ماء البحر متجهاً للقمر حسب قانون الجاذبية العام .

أما منازل القمر فهى مَبِيتُه فى كل ليلة حتى تكمل ثمانياً وعشرين ليلة وكسوراً وتسمى العرب كل منزلة باسم ما يحاذيه القمر من الكواكب التى سميت مجموعها بالبروج ، وأسماء منازل القمر الثمانية والعشرين على قسمين أربعة عشر يمانية وأربعة عشر شامية وهى :

الشرطين، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الزراع، النثرة، الطرفة، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العواء، السماك، النفر، الزيانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد ذائح، بلع، سعد سعود، سعد الأخبية، الفرع المقدم، الفرع المؤخر، الرشا .

ويذهب بعض العلماء إلى أن منازل القمر غير هذه الأسماء وقال : إن منازل القمر هى المقابلة والتوليد، فالهلال فالتسديس فالتثليث، والتربيع الأول والبدر ثم التثليث والتربيع الثانى والتسديس، فالمحاق لقوله تعالى: ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾ [يس : ٣٩] .

فمن هذه التغيرات الناتجة من دوران القمر حول الأرض تجاه الشمس يحدث التأثير على الأجواء والأجسام .

* * *

مبحث تأثير المذنبات والنيازك

أما الكوكب المذنب فهو جرم سماوى يسبح فى الفضاء حول الشمس ولا يقترب منها، وعندما يقترب من الشمس تجذبه بشدة وتضىء وتلمع وراء هذا الجذب ذيولاً من الكهرباء ومن الغازات . ولهذا يسمى كوكباً ذا ذنب .

أما النيزك فجرم صغير يسبح فى الفضاء ولا يقترب من الكواكب التى هى أكبر منها من الكواكب السيارة والأرض، فإذا اقترب من الأرض جذبته بقانون جاذبية الأكبر للأصغر فإما أن ينهزم النيزك ويتناثر غازاتها فى الهواء، وإما أن يسقط على الأرض ويحدث هوة عميقة حيث سقط . وهى آية يريد الله من ورائها أموراً كما أوضحها فى القرآن .

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ [الرعد : ١٣]

ولقد كان أهل الجاهلية يفسرون ذلك تفسيراً خاطئاً، فجاء

الإسلام يصحح لهم ذلك الخطأ بتفسير صحيح من القرآن والحديث وفى القرآن عدة آيات تثبت منها قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات : ٦ – ١٠] .

وجاء فى الحديث الذى رواه مسلم قال : بينما النبى ﷺ فى نفر من الأنصار إذ رمى نجم فاستنار فقال النبى ﷺ : « ما كنتم تقولون لمثل هذا فى الجاهلية إذا رأيتموه قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا، فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا وتخطف الشياطين فيرمون فيقذفون إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون » .

المبحث الثالث

فى تأثير الكواكب على حياة أفراد الناس

ويتعلق بهذا المبحث علمان أحدهما يسمى بالتنجيم، والآخر يسمى بالنجوم.

ويختلف التنجيم عن علم النجوم .

أما علم النجوم: فهو معرفة أوضاع الأجرام السماوية وسيرها وتنقلاتها، وسير الشمس والكواكب السيارة حولها، وسير البروج وربطها بالشهور والفصول. فهذا علم ثابت يعرف به مواقيت الصلاة والصيام والحج والزرع والحصاد وفى القرآن ما يشير إلى ذلك من قوله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢، ٦٣] ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾

[يونس: ٥]

فهذا علم النجوم الذى أجمع علماء الإسلام على جواز تعلمه بل على وجوبه لمعرفة عجائب السموات ومعرفة مواقيت الصلاة وجهات القبلة .

أما التنجيم فهو الزعم بأن الأجرام السماوية قريبها وبعيدها صغيرها وكبيرها لها تأثير على حياة الأفراد من الناس كما سبق آنفاً.

ويزعم أهله بأنهم يعرفون حوادث الكائنات بالنظر فى الكواكب وسيرها، وتنقلات الشمس فى بروجها والقمر فى منازله ويربطون ذلك بموت الملوك والعظماء والأمراء – وولاتهم ، وبتغير الشئون السياسية والزراعية والتجارية.

وأول ما يبطل نظرياتهم أنهم ربطوا الأيام السبعة بالكواكب السيارة. يوم كان مبلغ علمهم ينتهى إلى أن الكواكب السيارة سبعة وهى كما يقولون :

زحل شرى مريخه فى شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

ولقد أبطل العلم الحديث هذه النظرية وجعل الكواكب السيارة تسعا باستثناء الشمس والقمر، لأن القمر تابع للأرض،

وأن الشمس مركز الكواكب المسماة بالمجموعة الشمسية، وحولها عطارد وزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ونبتون ويورانس وبلوتو، فظهر الحق وبطل ما كانوا يزعمون .

ويقول ابن خلدون : (إن الحدس والتجربة لما بعد النيرين من الكواكب وآثارها ظنى وليس من اليقين فى شىء، لأن قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وإنما تحصل بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب البعيدة طويل الزمن، فيحتاج تكراره إلى آماد وأحقاب تتقاصر عنها الأعمار كلها لو اجتمعت على تحصيله) .

الخط فى الرمل :

ومن قبيل التنجيم : الخط فى الرمل، لأنهم يربطون هذا بذلك وينسبونهما إلى الكواكب والبروج وإلى الأيام والشهور، كما يعد من قبيل الكهانة والعرافة وطرق الحصى.

والتحقيق العلمى فى إبطال الخط قائم على عدم ثبوته واستقراره على نتائج ثابتة مستمرة ولو بسط صاحب الخط رمله وخط خطوطه وأخرج أشكاله ثم استنطق تلك الأشكال فى مرات

مختلفة، فإن نتائجها لا تتفق على جواب واحد إلا بالمصادفة، لهذا صار ملتبساً بالكهانة.

وكان بعض العلماء يرونه علماً جائزاً لما رواه مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: «كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك».

وحاصله على ما ذكر أهل التاريخ أن النبى إدريس عليه السلام – ولعله المسمى هرمس – هو المشار إليه فى الحدث، وهو الذى علمه الله ذلك الخط وبه أظهر الله نبوته، إذ تمثل له جبريل على ساحل البحر ذات يوم فبسط الرمل وخط ونظر إلى إدريس، فقال ما اسمك: قال إدريس. قال له أنت نبى وتكتم نبوتك؟ فقال إدريس : من أين لك هذا العلم؟ قال هذا علم الرمل، فقال إدريس: سألتك أن تعلمنى، قال حبا وكرامة، نجتمع هنا كل يوم وأعلمك، فكانا يجتمعان كل يوم حتى أتقنه إدريس ، فقال له جبريل يوماً: خط على الملك جبريل أين هو فى هذه الساعة فخط

---

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (٢ / ١٧٣)، معناه : أن من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقينى بالموافقة فلا يباح ، والمقصود : أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة.

إدريس فى الرمل حتى اكتشف أن صاحبه هذا هو جبريل عليه السلام، ثم طلبه فل يجده. فعلم أن الله بعثه إليه ليعلمه هذا العلم وليخبره أنه نبى، ثم أتى إدريس قومه واجتمع بأكابرهم وقال لهم: قد تعلمت علماً نفيساً فمن كان منكم فى قلبه ضمير فليضمره وأنا أبينه له فأضمر كل منهم فجعل إدريس يحدثهم ، وهم يتعجبون ، ثم سألوه أن يعلمهم فعلمهم، وهم الهرامسة تلامذة إدريس.

ولما علم أنهم أتقنوا العلم جيداً جمعهم وأخبرهم أنه خط فى الرمل فظهر له أن الله أرسل نبيًّا صادقاً وطلب إليهم أن يخط كل واحد لطلبه فخطوا جميعاً، فوافقوا على ذلك ثم أمرهم أن يبحثوا عنه حتى يجدوا أين هو ليؤمنوا به فخطوا حتى قالوا: أنت ذلك النبى فبذلك ظهرت نبوته وآمن به من آمن ، وكفر من كفر، ومن هنا ذهب علم الرمل إلى الكفار وبقى أثره فى الجاهلية وعليه قول النبى: « فمن وافق خطه فذاك ».

ولكن من الصعب أن نعرف من وافق خطه على الصحيح.

الكهـــانة

أما الكهانة فهى الإخبار عن الغيب وعن الأسرار وما يحدث في المستقبل. وقد استفاض فى البحث عنها العلامة ابن خلدون وقال: (إن الكهانة من خواص النفس الإنسانية المستعدة للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية فيحصل من ذلك لمحة للبشر من صنف الأنبياء، وقرر أنها تحصل للكهان بالفطرة وهذه باقية حتى بين يدى النبوة وبعدها كما حصل لابن صياد فى زمن النبى ﷺ والتى تحصل لهم بالاستعانة بالشياطين هى التى بطلت بما وقع من رجمهم بالشهب.

وكان فى العرب كهنة كثيرون أشهرهم شق وسطيح ممن يستعينون بالشياطين، وكان العرب يعتمدون على كلامهم ويثقون بأخبارهم.

وأعجب ما وصل إلينا من ذلك أن جماعة من الكهنة أخبروا بمبعث النبى ﷺ وقرب ظهوره منهم سطيح حيث وجه إليه النعمان عبد المسيح فلما أتاه أدركه يحتضر فكلمه فلم يجبه فأنشأ أبياتاً منها :

أصم أيسمع غطـريف اليمــن   يا فاصل الأضغاث أعيت من ومن

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه وقال: عبد المسيح، على جمل مسيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك نبى ساسان، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذآن، رأى إبلاً صحابا تقود خيلا عرابا، قد قطعت دجلة ، وانتشرت فى بلادها .

يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح . شاما يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت[١] .

---

(١) كان الكهنة يخبرون سائلهم بالكلام المسجوع لأنه أوقع أثراً فى النفوس، ويغلب عليه التكلف، لذلك نهى عنه النبى ﷺ بقوله: «إياكم والسجع فى الدعاء». وقضى النبى لأعرابى فى دية الجنين بغرة عبد أو أمة فقال الرجل: «أأدى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يطل» فقال النبى ﷺ: «أسجعا كسجع الكهان؟!» وذهب الأدباء إلى أن علة التحريم التكلف المقرون بالكهانة، وإذا زالت العلة زال التحريم؛ وفى القرآن والحديث عدد من السجع المنسجم المطاوع.

ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته فأخبر كسرى بما سمع[١].

ومنها أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت رجل اسمه الفاكه، وكان له بيت خاص للضيافة يأوى إليه الناس من غير إذن، وصادف أن الفاكه اضطجع مع زوجته هند فى دار الضيافة فى يوم لم يأو إليه أحد، ثم نهض الفاكه من جوار زوجته وخرج لقضاء حاجة له، ثم إن رجلاً ممن اعتادوا ارتياد البيت أقبل كعادته ودخله فلما أبصر هنداً رجع مدبراً فأبصره الفاكه فداخله الشك فى زوجه، وأقبل عليها فركضها برجله على غضب الغيرة فاستيقظت من نومها فقال لها : من ذا الذى خرج من عندك؟ فقالت لم أر أحداً، وهى فى دهشة نومها، فقال لها : الحقى بأهلك، وفشا الحديث حول هذا الحادث بين العرب، وتكلم عتبة ابن ربيعة والد هند مع زوجها الفاكه ، وقال له : إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن فخرجا فى وفد من قومهما إلى اليمن فلما قاربوا موضع الكاهن قالت هند

(١) البداية والنهاية ٢ / ٢٦٩ راجع المقدمة السادسة من ابن خلدون.

لأبيها: إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون عليَّ سبة فقال: أبوها سأختبره لك فأدخل فى إحليل فرسه حبة حنطة فلما دخلوا على الكاهن قال عتبة: إنا قد جئناك فى أمر، وقد خبأت لك خبأ أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال الكاهن : تمرة فى كمرة ، فقال عتبة : أريد أبين من هذا؟ فقال حبة بر فى إحليل مهر، فقال له عتبة: انظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل الكاهن يدنو من كل منهن فيضرب بيده على كتفها ويقول: انهضى، حتى انتهى إلى هند فقال لها: انهضى غير وسحاء ولا زانية ولتلدنّ ملكا اسمه معاوية فاغتبط الفاكه لذلك وقام إليها فرحاً لزعمه أنه أب ذلك الملك ، فأخذ بيد زوجته ولكنها جذبتها منه بكبرياء وأنفة، وقالت: إليك عنى فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك فطلقت منه، وكان ما كان من تزوجها من أبى سفيان بن حرب فولدت له معاوية وصدق تنبؤ الكاهن بولاية معاوية الخلافة وتأسيسه الدولة الأموية[١].

---

(١) وإن صح هذا الخبر – ولا أظنه يصح – فقد ورد فيه ما يدل على أن الناس فى الجاهلية كانوا يشكون فى صحة أخبار الكاهن =

وقد جاء فى الحديث من أخبار ابن صياد فيما رواه أبو داود: «أن النبى مر بابن صياد فى نفر من أصحابه وفيهم عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الغلمان عند أطم بنى مغالة، وهو غلام فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ظهره بيده ، ثم قال أتشهد أنى رسول الله؟ قال فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، ثم قال ابن صياد للنبى ﷺ : أتشهد أنى رسول الله فقال له النبى ﷺ آمنت بالله ورسله، ثم قال له النبى: ما يأتيك قال يأتينى صادق وكاذب. فقال له النبى ﷺ : خلط عليك الأمر، ثم قال رسول الله ﷺ إنى قد خبأت لك خبيئة».

وخبأ له ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان : ١٠] قال ابن صياد هو الدخ فقال رسول الله ﷺ : «إخسأ فلن تعدو قدرك».

فقال عمر: يا رسول الله إيذن لى فأضرب عنقه، فقال: إن

= فيما يخبرهم ، لذلك ارتابت هند واتهمت الكاهن فيما سيقول قبل وصولها إليه «إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطأ».

ويقول زهير – الشاعر الجاهلى :–

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

يكنه فلن تسلط عليه، يعنى الدجال، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال «ليس بشىء، فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشىء فيكون حقًّا؟ فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة» (متفق عليه) .

* * *

الإظهار على الغيب ليس تكهناً

قال تعالى:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

وجاء فى تفسير مفاتح الغيب آية أخرى هى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

بهذه النصوص ختم الله على أفواه من يدعى علم المغيبات

فيخبر الناس بها قبل وقوعها ، غير أن الله عز وجل قد استثنى من الناس من قد يظهرهم على الغيب في قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

[الجن : ٢٦، ٢٧]

فاتفق المفسرون على أن كل ما جاز معجزة للرسول جاز كرامة للولى .

ولكنهم اشترطوا أن يكون الإظهار على الغيب موهبة لاتكسبا ولا تصنعا، كما أن على من كشف الله له الغيب أن لا يتظاهر به ولا يعلنه على الناس فقالوا :

ولابد من كتم وعدم إذاعة ومن لا يراعى الشر لا يك واصلا

قال المحققون إن الغيب قسمان :

قسم استأثر الله به فلا يطلع عليه أحد، فسموه غيب الغيب أو الغيب المطلق .

وقسم يأذن الله بإظهاره لمن يشاء من عباده بدليل الاستثناء .

﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فسموا هذا بغيب الشهادة .

فذلك ما يكون بدلائل وقرائن ومقدمات يقينية ثابتة بتجارب عملية متكررة كالعلم بأن الشمس تطلع غداً صباحاً وتغرب مساء.

وأن الليل والنهار يتعاقبان. وكالعلم بمواعيد الفصول الأربعة، أو العلم بوقوع الكسوف والخسوف قبل وقوعه.

وكل ما كان من هذا القبيل فلا يعد غيباً مطلقاً بل هو غيب عند من لا يعرفه وشهادة عند من يعرفه كمن اطلع على شجرة عالية أو برج عال وشاهد أشياء لم يشاهدها من على الأرض البسيطة ولهذا قيل :

لا تكن منكراً فثم أمور لطوال الرجال لا للقصار
فإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

أما طرق الإظهار على الغيب :

فأولها : الكشف الباطنى بالفطرة أو بالرياضة فأهل هذا الكشف هم المسمون بالمحدثين الذين يخبرون بالغيب، فيقع صحيحاً وعليه قال رسول الله ﷺ «كان فيمن قبلكم محدثون وإن يكن من أمتى فعمر». رواه البخارى.

ذلك لأن عمر رضى الله عنه يقول أقوالاً ويرى آراء فينزل القرآن وفاقاً لما يقول، حتى روى عنه قوله: وافقت ربى فى ثلاث: فى الحجاب وفى الأسرى وفى مقام إبراهيم.

وثانيها: الرؤيا المناسبة فإنها تصح من كل إنسان ذكر وأنثى بر وفاجر كما صحت من الفراعنة والأكاسرة والأباطرة .

يقول ابن خلدون: إن حقيقتها مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات عندما تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية بارتفاع حجاب الحواس بالنوم فترتفع النفس إلى عالم الحق فتدرك بعض الحقائق.

ولقد عبر الشارع عن الرؤيا بأنها من المبشرات وبأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وكان الوحى يبتدئ بالرؤيا.

روى البخارى عن النبى ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا ما هى يا رسول الله قال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له وهى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

قال الملحدون بإبطال الرؤيا وقالوا: إن النائم يرى فى منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربع.

فـإن غلبت عليـه الصـفـراء رأى النار والمصـابيح والدم والمعصفرات .

وإن غلبت عليـه السـوداء رأى الأحـداث والسـواد والأهوال والأفزاع .

وإن غلب عليه البلغم رأى المياه والأنهار والأمواج .

وإن غلب عليـه الدم رأى الشـراب والرياحين والمعـازف والمزامير .

وهذا الذى قالوه نوع من أنواع الرؤيا وليست الرؤيا منحصرة فيه ، ولقد دلت التجارب على ما حققه الشارع من أن الرؤيا ثلاثة أقسام :

منها ما يكون من حديث النفس والوساوس التى نام عليها النائم ، فذلك ما يكون فى أول النوم وأول الليل .

ومنهـا مـا يكون من غلبـة الطبـائع كـمـا ذكـروا ، وتلك أضغاث الأحلام .

ومنهـا مـا يكون من الله فـتلك الرؤيا الصـالحـة التى تأتى واضحة أو على طريق الأضداد فيحتاج إلى التأويل والتفسير .

ومن قبيل الرؤيا اختلاج الأعضاء وذلك بحركة غير إرادية تحدث فى عضو من الأعضاء وتدوم لحظة أو ساعة أو ساعات .

ويذهب بعض الحكماء إلى أن الاختلاج ليس إلا مجرد احتقان البخارات فى داخل الجسم وطلبها المنفذ أو مجرد تغير الدم مثل ما قالوا فى الرؤيا المنامية وربما تبعهم فى ذلك بعض العلماء الذين قد تحجروا واسعاً من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

والعارفون بالحقائق يعرفون أن الاختلاج قد يكون مما ذكروا فعلاً، ولكنه يكون أيضاً من صحيح البدن وسليم الجسم دليلاً على إخباره بما يحدث له فى المستقبل فإنه من الآثار النفسية والمواهب الروحانية التى يرزقها الله من يشاء من عباده كالرؤيا .

ولا ينكرها إلا من لم يذقها أو لم يكن يلاحظها ومن جهل شيئاً عاداه قال تعالى : ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ [يونس : ٣٩] .

ولقد وضع المتقدمون تأويلاً لاختلاج الأعضاء كما وضعوا للرؤيا المنامية تأويلاً فمن صح عنده فليأخذه علما وحصافة ومن لم يصح عنده فليتركه جهلاً وخرافة .

على أن الاختلاف من قبيل الفراسة ، والفراسة علم وهبى لا يتيسر أو لا يقع لكثير من الناس.

وقد ذكر الراغب فى كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» أقسام الفراسة وذكر أنها ضربان . ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه وهو ضرب من الإلهام[١]، وإليه أشار الحديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[٢] رواه الترمذى.

وصاحبه هو المحدث الذى عناه النبى فى قوله «كان فيمن قبلكم محدثون وإن يكن فى هذه الأمة محدث فهو عمر» رواه البخارى.

وضرب يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال والأخلاق والأفعال واستطرد يقول : ومن الفراسة علم الرؤيا، وقد عظم الله أمرها فى جميع الكتب المنزلة.

ومن الفراسة الزكانة وهى معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم. والقيافة، ضرب من الزكانة وهى ضربان :

---

(١) لم يذكر الراغب الاختلاج ولكنه يندرج تحت الضرب الأول الذى هو الإلهام.

(٢) قال ابن الجوزى موضوع وقال غيره ضعيف.

أحدهما : تتبع أثر الأقدام والاستدلال بها على السالكين.

ثانيهما : الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبه وجنسه واختص العرب بعلم القيافة كما اختص بها بنو مدلج منهم .

وفى الموطأ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يلحق أولاد الجاهلية بمن ادعاهم فى الإسلام ، فأتى رجلان كلاهما يدعى ولد امرأة فدعا عمر بن الخطاب قائفاً فنظر إليهما القائف فقال لقد اشتركا فيه فضربه عمر بالدرة .

ثم دعا المرأة فقال : أخبرينى خبرك فقالت : كان هذا لأحد الرجلين يأتينى – وهى فى إبل لأهلها – فلا يفارقها حتى يظن وتظن أنه قد استمر بها حبل، ثم انصرف عنها فأهريقت عليه دماء ثم خلف عليها هذا – تعنى الآخر . فلا أدرى من أيهما هو؟ قال : فكبر القائف فقال عمر للغلام : وال أيهما شئت » .

وقد عمل عمر بقول القائف لما حدث على عهد رسول الله ﷺ فيما روت عائشة رضى الله عنها « أن مجززاً المدلجى رأى زيداً وأسامة قد غطيا رؤوسهما بقيطفة وبدت أقدامهما، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » رواه أبو داود .

تعاطي السحر من رواسب الجاهلية

السحر : هو التأثير في القلوب بالمحبة والكراهة أو إلقاء الخير والشر فيها، أو التأثير في الأبدان بالألم والسقم ، أو نحو ذلك .

والسحر قسمان : حقيقي وخيالي .

أما الحقيقي : فذلك سر من الأسرار وليس سحراً ، مثال ذلك سحر البيان لقول الرسول ﷺ : «إن من البيان لسحراً» .

أو نحو السر الذى أودعه الله فى خاصية بعض الأشجار والأحجار كتأثير المغناطيس على الحديد، أو الحرير الصخرى الذى إذا وضع عليه النار لم يحترق . ومثال ذلك كثير مما كان مكتوماً عند القدماء وصار اليوم علماً تجريبيًا وهو أصل الكيمياء الحديثة .

أما السحر الخيالى ، فهو أيضاً قسمان :

أولهما سحر أصحاب النفوس القوية : كأصحاب العين السوء التى تؤثر فى الأشخاص وتحدث الضرر فى الأجسام ، وقال المحققون : إنها تنبعث منها جواهر لطيفة غير مرئية فتتخلل المسام من البدن فيخلق الله الضرر عندها ، وهى قوة فطرية جبلية من

صاحبها، لهذا جاء فى الحديث : «العين حق، ولو كان شىء يسبق القدر لسبقته العين» متفق عليه .

وحديث «العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر» أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير.

ويلحق بهؤلاء أصحاب النفوس الضعيفة الذين يستعينون بالرياضات وجمع الأضداد وخواص الأشياء ليتقووا بها على إضرار الغير، وإلى هولاء يشير القرآن بقوله: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

ويلحق بذلك ما جاء فى القرآن على لسان النبى يعقوب من قوله: ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧] .

وقد اختلف العلماء فى إثبات حقيقة السحر الخيالى وعدم إثباتها.

اعتمد الذين نفوا عنه الحقيقة على قوله تعالى فى قصة سحرة فرعون بقوله:

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾

[طه: ٦٦]

واعتمد الذين أثبتوا حقيقته على ما سبق من آية سحرة بابل، وعلى ما ورد فى الصحيحين من أن لبيداً اليهودى سحر رسول الله ﷺ، وتأثر به حتى نزلت عليه المعوذتان على أحد قولى العلماء فى ذلك.

يقول ابن خلدون: «إن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا فى ديننا الذى فيه صلاح آخرتنا أومعاشنا الذى فيه صلاح دنيانا، وما لا يهمنا فى شىء منهما، فإن كان فيه ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات، لأن أثرهما واحد كالتنجيم الذى فيه نوع ضرر بالاعتقاد والتأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله، فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته فى الضرر، وإن لم يكن منه علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه تقرب إلى الله».

قلت : لا خلاف بين أهل التحقيق فى أن للسحر حقيقة، وإنما يبطلها الله بقوة الإيمان والإخلاص من العبد الصالح(١) .

ولقد سجل التاريخ الإسلامى فى غرب إفريقيا أن الدعاة الأولين فيها إنما نجحوا فى نشر الدعوة الإسلامية بغلبهم على سحرة إفريقيا الذين كان العوام يعتقدون أن لهم أسراراً ملكوتية يسيطرون بها على الأشخاص والأشياء .

فلما خبت نارهم وانكسرت شوكتهم بروحانية الدعاة

---

(١) لقد عاب بعض المستغربين على ابن خلدون فى تعرضه لأبحاث الكهانة والنجامة والسحر ، فرد عليهم الأستاذ البحاثة ساطع الحصرى فى تعليقه على المقدمة تحت عنوان «بين التاريخ والمؤرخين» ذكر أسماء علماء اليونان والرومان والإفرنج من أيام هيرودت أبى التاريخ، حتى القرن السابع عشر فى أوربا من الذين بحثوا فى تلك الخرافات وأثبتوا صحتها ولم ينقص من مكانتهم عند أهل أوربا فى علوم التاريخ والاجتماع والفلسفة .
ولئن كانت أوربا لم تتخلص من شرور السحرة إلا بعد أن أشعلت عليهم نار حرب قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة ، حتى تم إحراق مليون ساحر فى قرن واحد من بداية السادس عشر حتى نهاية السابع عشر، وكانت المحاكمات وتنفيذ العقوبات تتم باسم الملوك والبابوات فإن الإسلام استطاع أن يخلص المسلمين من شرور السحرة بقوة الإيمان واليقين ، كما قضى سيدنا موسى على سحرة فرعون ، وكذلك قضى دعاة الإسلام فى غرب أفريقيا على سحرة البلاد فكان ذلك من أقوى أسباب انتشار الإسلام فيها وبقائها إلى اليوم .

المخلصين الذين أيدهم الله بالكرامات على قدر ما استقاموا على طريقة الحق وعلم الناس أن القوة لله جميعاً ودخلوا فى دين الله أفواجاً ملوكاً ورعايا .

وإنما تم ذلك على يد علمائنا الأولين باستقامتهم وثقتهم بربهم .

وفى ذلك تحقيق لما ورد فى الحديث القدسى الذى رواه الشيخان : « ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، ولئن استعاذنى لأعيذنه ولئن سألنى لأعطينه » .

* * *

الباب الرابع

مزاعم الجاهلية ومبطلاتها

فى الجاهلية كثير من المزاعم التى كان الناس يعتقدون لها تأثيراً فى ذاتها. فجاء الإسلام بالإيمان القوى يستأصل شأفتها ويقلع جذورها من نفوس أهلها، وهى العدوى والطيرة والغول وصفر والنوء والهامة ونحوها.

وجاء في الأحاديث ما يدل على أن لبعض هذه المزاعم تأثيراً على الحقيقة، ولكن الله يبطلها بالتوكل. وقد أوضح أن بعضها خرافات لا تأثير لها على الإطلاق.

ولذلك ذكر الحديث بعض الاحتياطات التى يجب الأخذ بها لإبطال تلك الآثار.

قال فى العدوى: «لا توردوا الممرض على المصح» (متفق عليه).

وقال للمجذوم الذى يطلب منه البيعة (قد بايعناك فارجع) .

وقال : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » (متفق عليه) .

وقال : « إذا سمعتم بالطاعون فى أرض فلا تقدموا عليها ، وإن وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » رواه مسلم .

وندب إلى التوكل على الله عند الخوف من العدوى فى قوله للمجذوم والذى يريد أن يأكل معه ، « كل ثقة بالله وتوكلا عليه » .

وأهم مزاعم الجاهلية كما مر فى الحديث : هى العدوى والطيرة والغول وصفر والنوء والهامة والتطير والتشاؤم حتى بالأيام والشهور .

وإليك بيان ذلك بالتفصيل :

عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة إنما الشؤم فى ثلاث ، فى الفرس والمرأة والدار » رواه الأربعة .

وفى رواية لمسلم : « لا عدوى ولا غول ولا صفر » .

وفى رواية البخارى : (لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر) .

١ - العدوى : سريان الجرب من دابة إلى أخرى، أو من إنسان إلى آخر، وكانت العرب تعتقد أن الأمراض تعدى بذاتها فمنع النبى هذا الاعتقاد بقوله: «لا عدوى» كما مر بيانه.

٢ - أما الطيرة والشؤم: فهما شىء واحد، وبعبارة أخرى التطير والتشاؤم. وأصل التطير أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا خرج أحدهم لحاجة قصد طيراً وهيجه فإن رأى أنه طار عن يمينه تيمن به واستمر فى حاجته ، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع، ولذا جاء فى الحديث : «أقروا الطير فى وكناتها».

ثم صار التشاؤم والتطير فى كثير من الأحوال فجاء الحديث فحصرها فى ثلاثة أشياء وقال: لا شؤم إلا فى ثلاث : «فى الفرس والمرأة والدار». متفق عليه.

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: إنا نزلنا داراً فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ، ثم تحولنا منها إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل عددنا فقال رسول الله : «ارحلوا عنها وذروها ذميمة».

وجاء فى رسالة الإمام مالك لهارون الرشيد إذا نزلت منزلاً فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لأنه بلغنى عن

النبى ﷺ أنه قال: «من نزل منزلاً فقال هذه الكلمات وقى شر منزله حتى يرتحل عنه». الحديث. أخرجه مسلم عن خولة بنت حكيم.

ومما يلحق بذلك ما جاء فى سنن النسائى أن النبى لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن والأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها».

وروى أبو داود أن النبى ﷺ قال: «إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليقل: اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه».

ولما عز على الناس ما يجدونه فى قلوبهم من التطير والتشاؤم فى الأحوال والأمور، خفف النبى عليهم الأمر فقال: «ليس عبد لا يدخل قلبه الطيرة فإذا أحس بذلك فليقل: أنا عبد الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله لا يأتى بالحسنات إلا الله، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، أشهد أن الله على كل شىء قدير، ثم يمضى» رواه أبو داود.

ويلحق بها التشاؤم بالأيام والشهور.

نسبة الأيام والشهور إلى ما يحدث فيها

كانت الأمم فى الجاهلية تنسب الشهور القمرية والأيام الشمسية إلى ما يحدث فيها غالباً، لا فرق فى ذلك بين أمة وأخرى من الفرس والصين واليونان والرومان.

فمن رواسب الوثنية الرومانية التى بقيت فى الأمم التى كانت مستعمرة لها، أسماء الأيام التى كانت الرومان تنسبها إلى الآلهة المعبودة فيها .

فيوم عبادة الشمس هو المسمى بالإنكليزية اليوم: صون دى. وهو يوم الأحد مثلاً.

ويوم عبادة القمر هو المسمى موندى وهو يوم الاثنين مثلاً.

وهكذا يورسدى يوم عبادة الرعد .

وويدندى يوم الزواج والنكاح .

وكان العرب يسمون الشهور بعضها بما يحدث فيها .

كالمحرم حيث حرموا فيه القتال.

وصفر لأن النجوع والخيام كانت تصفر الرياح فيها لخلوها من سكانها.

والربيع لإخصابهم فيه وما بعده.

وجمادى لأن الأرض تجمد فيه ولا تخرج نباتاً ولا زرعاً ولا تدر النياق لبناً.

ورجب لأن العرب ترجيه وتحترمه .

وشعبان لتشعب القبائل فيه .

ورمضان لشدة الرمضاء والحرارة فيه .

وشوال لشولان الإبل وتحريك أذنابها فيه وقت اللقاح والحمل.

وذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال.

وذى الحجة لأنهم يحجون فيه .

وكذلك كانوا يسمون أيام الأسبوع بغير ما هى الآن فكانوا يسمون الأحد : الأول، والاثنين: أهون، والثلاثاء: جبارا، والأربعاء: دباراً، والخميس: مؤنس، والجمعة: عروبة، وللسبت: شيارا.

وربما تولد من ذلك اختصاص بعض الأيام لفعل الخير وبعضها لفعل الشر والحرب والضرب، ثم تبع ذلك التفاؤل والتشاؤم حتى بعد أن جاء الإسلام وغير أسماء الأيام إلى : الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، والسبت،

طبقاً لما عند أهل الكتاب فى التوراة ، لأنهم لا يزالون يسمون يوم السبت سباط بمعنى سبعة سابع الأيام.

ولقد بدأت التقاليد الجاهلية فى نيجيريا اليوم تهدف إلى نبذ أسماء الأيام العربية إلى الأسماء المحلية فى بلاد يوربا ، وهى أسماء منسوبة إلى الأوثان التى يعبدونها فيها قبل الإسلام ، فعلى الدعاة أن يحاربوا هذه الجاهلية .

ولنرجع إلى الكلام حول التشاؤم بالأيام والشهور :

لقد ورد فى الأحاديث ما ظاهره التعارض مع ما ذكرناه حيث يذكر الحديث بعض الأيام بالخير وبعضها بالشر . منها ما رواه الطبرانى وأخرجه السيوطى فى قوله : «آخر أربعاء من كل شهر نحس مستمر» فهو عند المحدثين حديث موضوع .

وفى تاريخ الخطيب البغدادى أن عليًّا رضى الله عنه كره أن يتزوج الرجل أو يسافر إذا نزل القمر فى المحاق لأنه وقت الظلمة، وقد تقرر أن للقمر تأثيراً على الكائنات الحية فى الأرض فى الهلال والبدر والمحاق.

ومصداق ذلك ما جاء فى حديث الاحتجام فى بعض الأيام

حسبما روى عن الترمذى أن النبى ﷺ قال: «إن خير ما تحتجمون فيه يوم سابع عشر أو تاسع عشر أو إحدى وعشرين». وذلك لنقصان الدم بنقصان نور القمر .

روى الألوسى فى مبحث يوم نحس مستمر أقوالاً متضاربة عن العلماء. ثم عقب قوله بما جاء عن الحليمى أنه قال: «علمنا ببيان الشريعة أن من الأيام نحساً ويقابل النحس السعيد وإذا ثبت الأول ثبت الثانى».

فالأيام منها نحس وسعد كالأشخاص منهم سعيد ومنهم شقى، ولكن الزعم بأن الأيام والكواكب تنحس وتسعد باختيارها وأوقاتها وأشخاصها فباطل، إذ الكل فعل الله، والأيام كلها لا تنفع ولا تضر بذاتها ثم ختم البحث بقوله: (كل الأيام سواء ولا اختصاص لذلك بيوم الأربعاء، وما من ساعة من الساعات إلا وهى سعد على شخص ونحس على آخر، باعتبار ما يحدث فيها من الملائم والمنافر والخير والشر) .

وأورد ما نسبه الحافظ الدمياطى لعلى رضى الله عنه من هذه الأبيات ثم تعقبها بأنها لا تصح :

لنعم اليوم يوم سبت حقا ... لصيد إن أردت بلا امتراء
وفى الأحد البناء لأن فيه ... تبدى الله فى خلق السماء
وفى الاثنين إن سافرت فيه ... سترجع بالنجاح والثراء
ومن يرد الحجامة فالثلاثا ... ففى ساعة هرق الدماء
وإن شر امرؤ يوما دواء ... فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفى يوم الخميس قضاء حاج ... فإن الله يأذن فى القضاء
وفى الجمعات تزويج وعرس ... ولذات الرجال مع النساء
وهذا العلم لا يدريه إلا ... نبى أو وصى الأنبياء

وإنى أظنه من اختصاصات الشيعة انظر ج/٢ ص١٧ من روح المعانى : يوم السبت يوم مكر وخديعة، ويوم الأحد يوم غرس وبناء، ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق، ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس، ويوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء، ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان، ويوم الجمعة يوم خطبة ونكاح .

فإن مثل هذا الكلام حيث يؤدى إلى التشاؤم ببعض الأيام، وقد قررنا أنها أعراض لا أثر لها فى حد ذاتها ، وإنما هى التى تتأثر بالوقائع والحوادث التى تكون فيها .

أما النوع الثانى : فى ذكر بعض الأيام بالخير، فالأحاديث

الواردة فى فضائل الأيام بعد خلق الأشياء فتنحصر فى : الليالى والأيام الفاضلة .

أما كون بعض الأيام أفضل من بعض فهو صحيح شرعاً وعقلاً، ذلك لما يحدث فيه من أعمال جليلة أو ينزل فيه من رحمات الله وبركاته، كما فى أيام العيد وليلة القدر التى نزلت فى فضلها سورة خاصة .

ومن ذلك ما جاء فى الموطأ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهى مسيخة حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيها ساعة لا يصادفها عبد مؤمن وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وروى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علىَّ من الصلاة فإن صلاتكم معروضة علىَّ » قالوا يا رسول الله وكيف تعرض عليك

صلاتنا وقد أرممت يعنى بليت قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» رواه أبو داود والنسائى.

وهناك أحاديث أخرى فى فضل يوم الاثنين كما فى صحيح مسلم «سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم الاثنين فقال ذلك يوم ولدت فيه ويوم بعثت فيه أو يوم أنزل علىَّ فيه».

كما أن هناك أحاديث فى فضل الشهور مثل شعبان ورمضان وباقى الأشهر الحرم، كل ذلك ليس للشهور والأيام فى حد ذاتها ولكن للحوادث الواقعة فيها ، ولما ينزل الله فيها من رحماته وبركاته .

* * *

بين التفاؤل بالأيام والتشاؤم بها

إن من آثار التنجيم الممقوت الاعتقاد بأن الكواكب هى التى تسعد الأيام أو تنحسها بتأثيرها.

والإسلام يقرر بأن الأيام كلها لا تنفع فى حد ذاتها ولا تضر إلا بإذن الله، إذ لا شىء يميز يوماً عن يوم إلا ما يحدث الله فيه من الآثار الجوية من حرارة وبرودة وأمطار ورياح وعواصف فهى التى

تؤثر على الأيام وتجعلها موافقة أو مخالفة لأمزجة النباتات أو الكائنات الحية على ظهر البسيطة فيُنتج من ذلك نحس على طائفة وسعد على الأخرى.

ولتمام تحقيق الكلام على الأيام لا بد من الاستئناس بكلام الحكماء فى المقولات العشر وهى:

إن المقولات لديهم تحصر	فى العشر وهى عرض وجوهر
وأول له وجود قاما	بالغير والثانى لنفس داما
ما يقبل القسمة فى ذات فكم	والكيف غير قابل بما ارتسم
أين حصول الجسم فى المكان	متى الحصول خص بالأزمان
ونسبة تكررت إضافة	نحو أبوة أخا لطافة
وهيئة بما أحاط وانتقل	ملك كثوب أو إهاب اشتمل
إن يفعل التأثير أن ينفعلا	تأثر ما دام كل كملا

وتفسيرها فى البيتين الآتيين :

زيد الطويل الأزرق بن مالك	فى بيته بالأمس كان متكى
بيده الغصن لواه فالتوى	فهذه عشر مقولات سوا

فالزيد هو الجوهر والطويل هو الكم والأزرق هو الكيف وابن

مالك هو الإضافة وفى بيته المكان وبالأمس هو الزمان، كان متكى هو الوضع بيده الغض هو الملك ، لواه هو الفعل فالتوى هو الانفعال .

فهذه هى القواعد التى يضعها الحكماء لتحقيق ماهية الأشياء: وقالوا إن الشىء إما جوهر أو عرض، والجوهر ما قام بنفسه ثم قام به غيره من الأعراض وهى تسعة.

وقالوا : إن الشىء إما جوهر وإما عرض ، والجوهر. ما قام بنفسه ثم قامت به الأعراض التسعة .

ومن الأعراض التسعة، مقولة المتى وهى بيت القصيد هنا وهى المختصة بالزمان، قالوا: إن الزمان مقدار معين لحركة كوكب من الكواكب أو مقدار معين لحركة الفلك الأعظم..

فبالنسبة إلى الكواكب السيارة حول الشمس يقسم هذا الزمان إلى ساعات وأيام وشهور وأعوام . وتوجد هذه المقادير فى كل كوكب من الكواكب السيارة باختلاف بعدها وقربها عنها.

واليوم عندنا نحن أهل الأرض مقدار معين يتحدد بحركة الأرض حول الشمس وتقسم ساعاته إلى أربع وعشرين ساعة، نصفها نهار ونصفها ليل.

وبعبارة أخرى نقول : اليوم مقدار متجدد معلوم يقدر به متجدد موهوم وليس له جسم ولا حركة ، فهو بذلك عرض لا جوهر حسب قاعدة المقولات العشر، وهو بذلك لا تأثير له على شيء لأنه عرض وإنما يؤثر عليه شيء آخر إذا كان جوهراً .

قال ابن القيم في بدائع الفوائد : «لما كانت الأيام متماثلة لا يتميز يوم عن يوم بصفة نفسية ولا معنوية لم يبق تمييزها إلا بالأعداد، ولذلك جعلوا أسماء أيام الأسبوع، مأخوذة من العدد نحو الأحد والاثنين أو بالأحداث الواقعة فيها كيوم بعاث ويوم بدر، ثم قال: أما حديث خلق الله التربة يوم السبت فحديث معلول، ثم كرر البيان بقوله: إن معرفة أيام الأسبوع لا يعرف بحس ولا عقل ولا وضع يتميز به الأسبوع عن غيره ، وإنما يعلم بالشرع ، بهذا لا يعرف أيام الأسبوع إلا أهل الشرائع بخلاف معرفة الشهر والعام فإنه بأمر محسوس. ج أول ص ٨٤ .

* * *

الأيام فى القرآن

لقد وردت فى القرآن عدة آيات تشير إلى أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام، منها قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] .

وقد تكلم المحققون فى تفسير ذلك فقالوا: إن معناه ستة مقادير متساوية من الزمن إذ لا ليل ولا نهار قبل خلق السموات والأرض وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ٦٢]

والمراد على مقدار البكرة والعشى فى الدنيا .

وهناك آيات تذكر بأفصح بيان كيفية بدء الخلق منها قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا

وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢] .

وهناك آية أخرى تدل على أن الأيام فى القرآن مقدار معين من الزمان غير أيامنا الشمسية، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] .

ومنها قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة : ٥]

* * *

الأيام فى الأحاديث

وعلى ذلك الأساس يجب إعادة النظر فى الأحاديث الواردة فى خلق الأشياء فى أيام معينة، فجميع أحاديث الأيام فى خلق الأشياء مشكوك فيها.

أما الأحاديث الواردة فى فضائل الأيام بعد خلق الأشياء

فلا بأس بها، فالأول من هذا النوع هو الذى رواه مسلم عن أبى هريرة قال: «أخذ النبى ﷺ بيدى فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

وهذا الحديث وإن كان صحيحاً فى سنده، ففى متنه علة كما ذكره ابن القيم وغيره طبقاً للقواعد العلمية المذكورة آنفاً.

لأن خلق الأيام لا تكون قبل خلق السموات والأرض حتى يكون خلق التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين.

* * *

الأيام السبعة من كل شهر

وكذلك ما يروى فى بعض الأحاديث الضعيفة التى تنتهى أسانيدها إلى الإمام على رضى الله عنه ، أنه ينبغى للمرء، أن يتوقى تلك الأيام للأمور المهمة وهى: الثالث والخامس والثالث

عشر والسادس عشر والحادى والعشرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين من كل شهر حتى كانوا ينسبون إلى الحافظ ابن حجر منظومة لهذه الأيام المنحوسة.

توق من الأيام سبعا كواملا	فلا تبتدى فيهن بيع ولا سفر
ولا تلبسن ثوبا جديداً وخلعة	ولا تنكح الأنثى ولاتغرس الشجر
ولا تحفرن بئراً ولاتبن منزلا	مقابلة السلطان فالحذر الحذر
ثلاث وخمس ثم ثالث عشرة	ويتبعها من بعد ذا سادس عشر
وحادى والعشرين لا تنس حذره	وأربع والعشرين والخامس الأثر
وآخرا أربعا من الشهر كله	كما ورد النص الذى شاع واشتهر
توقهموا ما دمت حيًّا فإنهم	كأيام عاد ليس تبقى ولا تذر

فإنها لا تستند إلى برهان علمى أو دليل شرعى وربما كان من أعمال الشيعة الذين كانوا يزعمون أنهم يختصون بما ينسبونه إلى الإمام على من علوم وأسرار.

* * *

من مزاعم الجاهلية

١ - **فالهامة** : وهى بومة تزعم العرب أن القتيل إذا لم

يؤخذ له ثأره تجتمع عظامه وتصير هامة تطير وتحيا وتقول:
اسقوني اسقوني فلا ينقطع صياحها حتى يؤخذ بثأر القتيل[١]
وهذه خرافة محضة، لذلك جاء الإسلام وفندها وقال في الحديث
«ولا هامة».

٢ - والغول : مفرد الغيلان وهو نوع من الجن والشياطين
تزعم أنه يظهر للناس بصور شتى تضلهم عن السبيل وقد جاء
الإسلام ونفى هذا الاعتقاد لأنه شيء وهمي وقال أحد العلماء إن
الغول أحد المستحيلات الثلاثة بقوله:

اعلم بأن المستحيل ثلاثة — الغول والعنقاء والخل الوفي

غير أن جاهلية إفريقيا كانت ولا تزال تصطنع الغول
وتخيف به الغلمان والنسوان، وذلك بأن يتقمص أحدهم رقاعاً
مبرقشة تغطي سائر بدنه من أعلى رأسه إلى منتهى قدميه .

وربما حمل فوق رأسه أشياء رهيبة كجماجم الموتى أو مواد
سامة تضر من يدنو إليها من غير حاملها الذي كان قد اصطبغ

---

(١) قال شاعرهم :
يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي — أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

بترياق تلك السموم ، يريدون بذلك ليثبتوا وجود الغول ويخيفون بها النسوان، ولا تزال أعياد الغول تقام حتى اليوم فى كثير من البلدان التى لا يحكمها أمراء مسلمون فى سواحل غرب إفريقيا بما فيها نيجريا وما يجاورها، منها الغول الطويل للنوفاويين والقير لليرباويين.

ومن الخرافات التى أبطلها الإسلام ما كانت الجاهلية تفعله وتسميه :

العقر : وذلك أن يذبحوا عند القبر بقرة أو شاة أو جملاً ويقولون : إنه كان يعقرها للأضياف فى حياته فيكافأ بذلك بعد الموت.

وبعضهم يزعمون أن من مات فربطت على قبره دابته وتركت حتى تموت حشر عليها، ومن لم يفعل ذلك حشر ماشياً، ولذلك كله جاء الإسلام وقال : (لا عقر فى الإسلام) .

لهذا ذهب العلماء إلى النهى عن التصدق على الميت بذبيحة من بقرة أو شاة أو نحوهما حتى لا تشتبه بهذا العقر، وذلك من باب سد الذرائع أو من باب ترك الشبهات .

ومن المزاعم الباطلة الرقى والتمائم والتولة: لما جاء في الحديث «أن الرقى والتمائم والتولة شرك». رواه أحمد والحاكم.

غير أن الإسلام قد رخص في هذه الأشياء إذا كانت من القرآن ولا تنتمي إلى الكفر والوثنية كما سيأتي، ولعل هذه الرخصة هي التي حملت علماء غرب إفريقيا على استبدال آثار الوثنية بما كانوا يسمونه «خذ من القرآن ما شئت لما شئت» لأنه شفاء ورحمة للعالمين.

أما الرقى: فهي كلمات تقال للتعوذ والتحصين من الشياطين وشرورهم، فقد نهى الإسلام عما كان منها غير مفهوم أو كان مما تستعين بالجن.

أما ما كان من القرآن فجائز لما رواه مسلم عن عوف ابن مالك قال: كنا نرقى في الجاهلية فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليَّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك».

وعن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال:

«اشتكيت؟ قال نعم. قال باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك باسم الله أرقيك» رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً قال: «بعثنا رسول الله فى سرية ثلاثين راكباً فنزلنا بقوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا فلدغ سيدهم فأتونا فقالوا هل فيكم أحد يرقى من العقرب؟ فقلت: نعم أنا ولكن لا أفعل حتى تعطونا شيئاً، قالوا: نعطيكم ثلاثين شاة فقال فقرأت عليه الفاتحة سبع مرات فشفى الرجل فلما قبضنا الغنم عرض فى أنفسنا شيء منها فكففنا حتى أتينا النبى ﷺ فذكرنا له ذلك فقال أما علمت أنها رقية اقسموها واضربوا لى معكم بسهم». متفق عليه .

وفى القسطلانى شرح البخارى أن النبى قال: «ولو أن رجلاً موقناً قرأ هذا القرآن على جبل لزال».

أما التميمة: فهى الخرزة التى كانت العرب تعلقها على أولادهم لمنع العين عنهم، وتكون من الثعلب أو الهر أو الكلب أو الودعة أو نحو ذلك ، وكانوا يعتقدون أن ذلك إذا علق على

الطفل لم تقدر الجن على خطفه أو إصابته ، فيسلم من كل آفة، فتلك خرافة من الخرافات .

فجاء الإسلام ونهى عنها وقال النبى ﷺ «من علق تميمة فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا أودع الله له» رواه أحمد والحاكم.

وجوز بعضهم تعليق ما كان من القرآن كآية الكرسى والمعوذتين وغيره، روى النووى فى الأذكار عن سنن أبى داود والترمذى وابن السنى أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع كلمات : «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» .

قال وكان عبد الله بن عمر يعلمهن من عقل من بنيه ومن لم يعقل كتبه فعلقه عليه . قال الترمذى حديث حسن .

أقول : ومن هنا أخذ علماؤنا الأفارقة جواز كتابة آيات القرآن وتعليقه حتى للكافر والمتنجس والجنب فتغالوا فيه وجاوزوا الحد الذى لم ينزل الله به سلطاناً، فأبطلوا تلك المنفعة إذا لم يراعوا حقها، فيجب على الدعاة أن ينبهوا عليها . فلا يجوز حمل القرآن أو كتابة شيء منه للكافر الذى لم يؤمن بالله(١) .

---

(١) إن القرآن الكريم إنما أنزل لحرب الخرافات، فلا يجوز أن ترتكب هذه الخرافات باسم القرآن نفسه.

جواز التداوى بالعقاقير :

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: « تداووا فإن الله ما أنزل داء إلا وقد أنزل له دواء»، وفى رواية أبى داود قال: «إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام» .

والأدوية التى تعالج بها الأمراض من ثلاثة أنواع مفردة كانت أو مركبة.

الأول منها : ما يكون من النباتات كالعجوة والحبة السوداء .

من ذلك الحديث القائل: «من تصبح على سبع تمرات عجوة لم يصبه سم ولا سحر ذلك اليوم» رواه البخارى.

الثانى منها : ما يكون من الحيوانات كالعسل واللبن والبول الجائز والمرارة. ويستدل على ذلك بالحديث القائل: «عليكم بألبان البقر فإنها دواء وأسمانها فإنها شفاء وإياكم ولحومها فإنها داء» رواه الحاكم .

والثالث منها : ما يكون من أجزاء الأرض كالتربة والنورة كما فى حديث الرقية الذى رواه البخارى .

وكان النبى ﷺ يتداوى بالأدوية المفردة كالعسل والعجوة والحبة السوداء والكمأة ويأمر أصحابه كذلك. بالتداوى بها.

والأحاديث الواردة فى ذلك كثيرة ومشهورة.

* * *

التداوى بفضلات الدواب الطاهرة

فى البخارى أنه سئل ابن شهاب عن ألبان الأتن ومرارة السبع وأبوال الإبل. فقال: قد كان المسلمون يتداوون بها ولا يرون بها بأساً.

وفيه أن أناساً اجتووا المدينة فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة ليشربوا ألبانها وأبوالها ففعلوا فشفوا ثم كان ما كان من أمرهم.

* * *

التداوى بالحرام جاهلية

كان أهل الجاهلية يتداوون ببعض الأدوية النجسة كالخمر والدم والبول القذر أو بالحيوانات الميتة النجسة كالهدهد والضفدع وعظام الميتة ونحو ذلك، ولما جاء الإسلام حرم كل ذلك وسماه (الدواء الخبيث).

وفى أبى داود: نهى النبى ﷺ عن الدواء الخبيث، وهو كل

ما يتركب من الحيوان الذى لا يؤكل أو الميتة وفضلة الحيوان أو المسكر أو الترياق المركب من لحوم الأفاعى أو ما يحتوى على الحشرات السامة كالعقرب والعنكبوت.

وقد سأل طبيب النبى ﷺ عن ضفدع يجعلها فى دواء فنهاه النبى عن قتلها.

وسئل عن التداوى بخمر فأجاب: إنها ليست بدواء ولكنها داء، «وأن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم».

وفى التاريخ : أنه بلغ عمر رضى الله عنه أن خالد بن الوليد تدلك بالخمر لإزالة شعر جسده فكتب إليه عمر يقول : إن الله حرم ظاهر الخمر وباطنه كما حرم ظاهر الإثم وباطنه ، قد حرم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرم شربها فلا تمسوها أجسادكم فإنها نجس.

فكتب خالد : إنا قتلناها فعادت غسولاً غير خمر. فكتب إليه عمر: «إنى أظن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه».

هذا ولا يزال بعض المسلمين فى نيجيريا وما حولها يتعاطون

الدواء الخبيث إلى يومنا هذا. إما لشفاء الأمراض البدنية أو للدفاع عن سحر السحرة والمجال في غير هذا أوسع.

كما أن الكثيرين منهم لا يتعففون من الأدوية الأوربية الخبيثة المركبة من المحرمات. والمسلم الصحيح القوى الإيمان يستطيع أن يبحث عن مركبات ذلك ليميز الدواء الطيب من الخبيث إلا إذا لم يجد إلى ذلك سبيلاً فيدخل فى حكم المضطر.

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ .

على أن فى غابات إفريقيا السوداء من غرائب النباتات وعجائب الأشجار ما كان القدماء يستعملونها قبل أيام الاستعمار، فيعالجون بها جميع الأمراض فإنها تصح حتى اليوم بأيدى من يعرفها.

ولو أن الكيمياويين والأطباء الحديثين اهتموا بكشف خواصها لأتوا بالعجب العجاب من العلوم التجريبية فى الطب والكيمياء قبل انقراض تلك النباتات فى غرب إفريقيا أو قبل انقراض من يعرف استعمالها.

من رواسب الجاهلية فى النكاح

جاء فى سنن أبى داود أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرت «أن النكاح كان فى الجاهلية على أربعة أنحاء» فكان منها نكاح الناس اليوم.

الأول : أن يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها.

والثانى : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب.

وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد فكان النكاح يسمى الاستبضاع.

والثالث : يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد

ولدت وهو ابنك يا فلان فتسمى من أحبت منهم باسمه فيلحق بها ولدها.

والرابع : أن يجتمع العدد الكثير من الناس فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً لمن أرادهن فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فنسب إليه، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمداً ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح أهل الإسلام.

ومن الأنكحة الجاهلية التى أبطلها الإسلام (نكاح الكره) :

وهو أن يلقى الرجل ثوبه أو أن يضع يده على امرأة أخ له مات عنها فيتزوجها بدون مهر أو نكاح جديد، بل على مهر المتوفى فتكون المرأة بهذه الصورة جزءاً من تركة الميت يرثها من هو أولى بها من عصبة الميت، وقد حاربها الإسلام وقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾

[النساء : ١٩]

ومنها **نكاح المقت** وهو أن يتزوج الابن امرأة أبيه إذا كانت صغيرة فيرثها كما تورث سائر التركة، فجاء الإسلام وقال:

﴿ وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ٢٢] .

ولا تزال رواسب نكاح الجاهلية فى كثير من البلدان غير الإسلامية حتى اليوم أو فى البلاد التى يختلط فيها المسلمون وغيرهم وربما تكون بصورة غير مباشرة، خصوصاً فى كثير من بلاد غرب إفريقيا التى لم يكن الإسلام فيها قويًّا، ولو بلغت ما بلغت فى الحضارة الغربية.

ومن التقاليد الجاهلية الباقية حتى اليوم بين الطبقات الفقيرة فى نيجيريا أن يغتصب الرجل صداق ابنته ليستأثر به أو ليقسمه بين العائلة حتى لا تنال البنت منه إلا لعاعة فيترك تجهيز زفاف البنت لأمها، أو للبنت نفسها من عرق جبينها عبر الأعوام السابقة لسن الزواج العرفى.

ومن تلك التقاليد الجاهلية المذمومة أن يقطع الزواج مراحل متعددة يأكل كل مرحلة منها مبالغ ضخمة من الرجل الخاطب.

فيؤخرون الزفاف حتى يطول استغلال الخاطب فى مناسبات الأعياد والمواسم وفى الأفراح والأتراح .

ومنها أن يجعلوا المهر أقساماً مجزأة فى أدوار مختلفة[١] .

بعضها فى دور الخطبة، ويسمى الهدية أو الوسيلة .

وبعضها فى دور القبول، ويسمى رأس المال .

وبعضها فى دور الزفاف، ويسمى لوازم الجهاز .

وآخرها فى خاتمة المطاف، ويسمى الصداق الشرعى .

وهذا الذى يدفع بجلس العلماء ويقع عليه عقد النكاح المشهود، وهذا كله ما يحدث فى بلاد يوربا فى نيجيريا وما حولها من الأقطار المجاورة .

وهذا الذى يحمل بعض الفتيان المستهترين إلى الإقدام على جريمة خطف البنت أو الوقوع عليها بطريق الزنا وإحبال البنت قبل

---

(١) كما فى هذه البدعة المستحدثة التى يحرص عليها كثير من الناس وهى مؤخر الصداق وإنما فعلوها كنوع من التأمين وليست من الإسلام فى شىء، إذ أن مبدأ الإسلام « التمس ولو خاتماً من حديد » فلم يقل الرسول : يكون مؤخر الصداق فى ذمتك، كما يفعله الناس اليوم!

تمام المرحلة الطويلة . فيكون الأولياء بذلك من الذين أشركوا فى الإثم ومهدوا الطريق، لهذه الجريمة يقول القرآن :

﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ .

ومن التقاليد المذمومة ما يفعله بعض المسلمين فى بلاد هوسا وغيرها، من إطلاق سراح البنت الصغيرة فى سن المراهقة لقبول خطبة عدة من الرجال، وقبول الهدايا والوسائل من كل واحد فى سن مبكرة كما أن الزواج فى سن مبكرة مما يعتقد مسلمو بلاد هوسا أنه من الإسلام. ولا نريد أن نخوض فى ذلك الآن وإنما نكتفى بأن نقول : إن ما يفعله الكثير من الآباء وأولياء الأمور من إطلاق سراح البنت الصغيرة لقبول الهدايا من مختلف الخاطبين، يجب أن نحاربه ونتخلص منه حتى إذا تحدد يوم الزفاف اختار الوالد أو الولى لبنته واحداً من أولئك الرجال وطلب من الباقين أن يحاسبوه على ما أنفقوا من الهدايا للبنت حتى يرده لهم الوالد كاملاً غير منقوص، وقد فتحوا بذلك قلب البنت لمحبة عدد رجال من الذين عشقوها وعشقتهم، حتى ولو بقيت فى بيت زوجها ، ولا تلبث أن تفارق الزوج الأول بأدنى شقاق أو خلاف لتعود إلى واحد من أولئك العشقاء. وإن لم يجد لذلك سبيلاً فتحت لنفسها بيتاً للدعارة خارج المدينة (سابنغرى) .

وابتدع الآخرون منهم بدعة شنيعة وهم غلاة الإيمان والإحسان الذين يحسبون أنهم يحسنون لله وللناس صنعاً .

وتلك البدعة هي (التصدق بالبكر) وربما سموها بصدقة جارية وهي أن يجهز الرجل زفاف ابنته وأن يعقد عليها لرجل لم يسبق بينهما خطبة ويقدمونها إليه بصورة أمة مهداة .

وربما جهزوها بمؤونة تكفيها هي وزوجها لمدة سنة كاملة حتى لا تضطر الزوج إلى الاعتذار بضيق ذات يد .

وكثيراً ما ينقلب مثل هذا الزواج شقاقاً ونفوراً بين الزوجين، لأن المحبة لم تكن مزروعة، وإنما هي مغروسة، وشتان بين الزرع والغرس .

والإسلام يستنكر مثل هذه الصدقة ولم يسمع بمثله في الشرع الإسلامي، وإنما يتصدق بالإماء دون الحرائر . والله تعالى يقول :

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣] وأمر الرجال بدفع مهور النساء ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤]

وعن المغيرة أنه خطب امرأة فقال النبى : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» رواه النسائى والترمذى.

ويقول النبى ﷺ أيضاً: «لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر، والثيب تعرب عن نفسها، وإذن البكر صماتها». متفق عليه.

والاتفاق بين الزوجين شرط أساسى قبل عقد النكاح وتجب الفورية فى عقد الزواج بعد الوئام والوفاق فلا شىء يؤخر العقد إلا المرض أو الحج أو دم النفاس.

* * *

شروط النكاح فى الإسلام

إن شروط النكاح فى الإسلام كلها معقولة وميسورة وقد جمعها بعضهم فى هذا البيت:

المهر والصيغة والزوجان ثم الولى ثم شاهدان

الأول : المهر ، وهو الصداق الذى تقبضه المرأة من الرجل لاستحلاله لها سواء أكانت دفعة واحدة أم أقساطاً مقسمة مباشرة، أو عن واسطة وأقله ربع دينار ولاحد لأكثره، ومع ذلك نهى الإسلام عن التغالى فى المهور فإن ذلك مدعاة للزنا والفجور.

وقد جعل الإسلام الصداق حقًّا للزوجة على الزوج نظير تمليكه بضع المرأة واستمتاعه بها وجعله جبرا لاستفراشها ومكرمة تجعلها عزيزة عند زوجها، قال تعالى :

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤] .

وهو خطاب للأزواج والأولياء الذين يحرمونهن هذا الصداق فى الجاهلية، وإن كان يجوز لولى البكر الصغيرة أن يقبض مهرها وإنما يقبضه لتجهيزها له لا ليغتصبه لنفسه .

وليس للزوجة ولا لوليها حق إسقاط الصداق كله وإنما لهم الحق فى إسقاط بعضه إذا كان هذا بالبعض هو الزائد على حق الله، الذى هو ربع الدينار أو ثلاثة دراهم .

ومن جاهلية القرن العشرين ما ظهر اليوم من بعض النساء المثقفات اللاتى يطالبن أنفسهن بإسقاط الصداق عليهن لما فيه حسب زعمهن من شعار المذلة والعبودية، التى تفرض عليهن طاعة الأزواج ولا يجعلهن سواء مع الرجال .

أليس على هولاء النساء أن يطالبن الطبيعة أولا بتناوب الأعضاء الجنسية والدورة الشهرية والحمل والرضاعة بين الرجل

والمرأة قبل كل شيء، وإن لم يفعلن فلن يفعلن ولن يجدن لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٣٢] .

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] ويجوز إعطاء المرأة لوليها أو زوجها شيئاً من الصداق عن طيب نفس منها لا عن طريق القهر والغصب واستغلال السلطة وإلى ذلك أشار القرآن :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾
[النساء : ٤]

والشرط الثانى : الصيغة وهى الإيجاب والقبول كما فى البيع والشراء. والإيجاب هو الكلام الذى يصدر من أحد العاقدين كالخاطب مثلاً أو وكيله الذى يقول تزوجينى يا فلانة أو أطلب منك الزواج ، أو أنا فيك يا فلانة راغب، أو ما أشبه ذلك شفاهيًّا أو كتابيًّا.

والقبول هو ما يصدر من الزوجة أو الولى مما يدل على الرضا والموافقة، ويكون ذلك أمام شهود مع صداق .

وليس جلوس العلماء والأئمة لقراءة الفاتحة أو خطبة معينة شرطاً فى صحة العقد كما اعتقده الناس فى غرب إفريقيا، ولكننا لم نقل إن جلوسهم حرام بل هو خير لمراعاة شروط النكاح كاملة .

وليس شرطاً أن تكون الخطبة أو عبارة العقد والدعاء لغة عربية، وإن كانت هى الأفضل، بل يتم العقد بأى لغة كانت لأن النكاح كالبيع فى العقد .

ولذلك إذا أسلم الزوج والزوجة وبقيا على عقدهما قبل الإسلام، فلا يجدد عقد نكاحهما بعد الإسلام .

وقد أصر بعض العلماء على تجديد النكاح بعد إسلامهما ، وذلك لا يستند إلى دليل شرعى إذ لم يرد فى الحديث أن النبى جدد نكاح زوجين دخلا فى الإسلام بل كان يبقيهما على نكاحهما الجاهلى ومن زاد على الأربع يقول له «اختر منهن أربعاً» .

حضور العلماء لشهود عقد النكاح :

إنما يستحب أن يتم هذا العقد أمام العلماء لمراقبة شروط

النكاح، عليه والاستفادة من وعظهم وإرشادهم الزوجين ودعائهم لهما ولم يرد فى كتب الفقه نص معين لخطبة العقد وإنما وردت خطبة الحاجة التى كان يستعملها النبى فى مناسبات شتى وليست خاصة بالنكاح .

ونص الخطبة :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٠، ٧١]

ثم يذكر حاجته». رواها أبو داود والنسائى والحاكم.

وللإمام أو العالم أن يختار أى صيغة من صيغ الخطب حسبما يوافق الغرض والوضع، وقد وضع بعض العلماء خطب الزواج لمن لا يستطيع الارتجال بالعربية كما فى خطب الجمع والأعياد. وقد عملنا نحن مثل ذلك للأئمة فى كتاب سميناه عون الإمام الراتب وهو معروف ومستعمل كثيراً.

الشرط الثالث : الزوجان، ولابد من إذن الطرفين قبل إيقاع العقد، وإلا فهو النكاح الجبرى القهرى.

الشرط الرابع: الولى، وهو الأب أو وكيله أو من يقوم مقامه من الرجال ولا تكون المرأة وليًّا.

والشرط الخامس : الشاهدان العدلان وإن لم يوجد العدول يستكثر من الشهود، وعلى هذا يجتمع الناس أمام العلماء ليكونوا شهودا.

* * *

من الأسماء سيما الكفر والإسلام

الاسم : ما كان موضوعاً للشيء بالأصالة مثل السماء والجدار .

والصفة: ما كان مشتقًّا من فعل كالطويل والقصير.

واللقب : ما أشعر بمدح أو ذم كأنف الناقة .

والكنية : ما ابتدأ بابن أو أب أو أم كأبي القاسم .

وبالاسم يعرف ذات الشيء أو أصله ، وهو الذى يتميز به عن غيره ، وهو مشتق من السمو أى الرفعة ، أو السمة بمعنى العلامة .

وكل إنسان ينشرح بنسبة الجميل إليه كما تنقبض نفسه بنسبة القبيح له ، والله سبحانه وتعالى يرضى لعباده أن يتأدبوا معه فى أن ينسبوا الخير إليه، وهو الفاعل الحقيقى للخير والشر، ويغضب أن ينسب الشر إليه.

ويحرضهم على دعائه بالأسماء الحسنى حيث قال :

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠].

ومن أدب الأنبياء مع الله أن ينسبوا الخير إلى الله تعالى كما في قصة العبد الصالح مع النبى موسى عليهما السلام، فقد نسب عيب السفينة إلى نفسه ونسب خير الغلامين لله تعالى.

وقول الجن : ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] وقد غضب الله على اليهود حيث نسبوا إليه البخل.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وقوله : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران : ١٨١].

وأوجب الإسلام على المسلمين التخلق بأخلاق الله، وقال النبى ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله » .

وأوجب عليهم أن يختاروا لأنفسهم خير الأسماء وأن يتسموا بأحسنها، وقال النبى ﷺ : «أحب الأسماء إلى الله تعالى

عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة » وقوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩]

ومما يؤيد هذا المعنى ولو بالتأويل دون التفسير، وأباح الإسلام لنا أن نتسمى بأسماء الأنبياء وحوارييهم على نحو ما جاء في الصحيحين.

« تسموا بأسماء الأنبياء وإنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم فأحسنوا أسماءكم ».

ذلك لأن أسماء الأنبياء والرسل لا تنتمي إلى الكفر بالله، ولا إلى ما يقدح في شرف وظيفتهم أو ينال من كرامتهم .

بل منها ما يدل على منبتهم ونشأتهم وأفعالهم ، كآدم عليه السلام لأنه مأخوذ من أديم الأرض ولونه، وهذا صحيح لأن الله خلق آدم من تراب .

وموسى سمي بذلك لأنه ملتقط من بين الماء والشجر وأصله في العبرانية موشى، ونوح سمي بذلك لكثرة نياحه على قومه .

وإدريس لكثرة دراسته الصحف. وقد قيل إنه أول من خط

في الصحف، ومنها ما يدل على التفاؤل بهم، كإسماعيل ويحيى ويونس ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومنها ما يدل على صفتهم كإبراهيم بمعنى أب رحيم أو شديد النظر[(١)].

وإسحاق بمعنى الضحاك، وهرون بمعنى المحبب.

وعند ظهور الإسلام كان العرب يتسمون بأسماء متنوعة منها الحسنة، ومنها القبيحة. وكان النبى يبقى من أسلم على اسمه إذا كان لا يدل على ما يستهجن، ولا يمت إلى الأوثان بصلة ولا يدل على التزكية.

لم يغير النبى من أسماء الناس إلا قليلاً كزينب وقد قيل إن اسمها كان بره، وكانت تزكى نفسها فسماها النبى زينب.

وأن ابنة لعمر بن الخطاب كان اسمها عاصية، فسماها النبى جميلة.

وكان رجل يدعى حزن بن سعد فسماه النبى سهلاً.

---

(١) أورده السيوطى فى الإتقان والسجاعى فى شرح أسماء الرسل، وفيه نظر لأن ذلك يتوقف على إثبات مدى علاقة هؤلاء الرسل الكرام باللغة العربية.

وقوم يسمون بنى الزنية، فسماهم النبى بنى الرشدة .

وشعب الضلالة سماه النبى شعب الهدى، وهكذا .

وكره النبى بعض الأسماء ثم روى أنه رجع عن كراهته قبل مماته، وفى ذلك قوله «لا تسمين غلاماً يساراً ولا رباحاً ولا نجاحاً ولا أفلح، فإنك تقول أثم هو فلا يكون فيقول لا» وهذا من باب التفاؤل .

أما الأسماء التى نهى الإسلام عنها فهى كل ما هو قبيح أو ذم ، وقد نهى عن تلقيب الإنسان بما يكرهه سواء كان صفة له أو اسماً أو كنية، كالأعمش والأعمى والأصم والأقرع والأعرج والأبرص وغير ذلك : وعليه قال القرآن :

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى لا يعب بعضكم بعضاً بالأسماء .

ومن الغلط الخفى الشائع عندنا فى غرب أفريقيا تسمية بعض الناس بأسماء البلاد التى لا يعرفونها ولا ينتسبون إليها إطلاقاً، وإنما أخذوها مدرجة مع أسماء بعض الأولياء والعلماء الصالحين كالسيوطى لعبد الرحمان والغزالى والبدماصى والرفاعى

لمن اسمه أحمد والدسوقى لإبراهيم والغدامسى والبوصيرى والحلى والبغدادى والتهامى والسنوسى. ونحو ذلك .

فالأفضل الرجوع إلى أصل الأسماء ونبذ الانتساب إلى البلاد التى لا ينتمى إليها غير أهلها، وفى أبى داود أن أبا عقبة وكان مولى الأنصار من أهل فارس، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أحداً، فضربت رجلاً من المشركين فقلت : خذها منى وأنا الغلام الفارسى، فالتفت إلىَّ رسول الله ﷺ فقال: «هلا قلت خذها منى وأنا الغلام الأنصارى؟».

وفى غرب أفريقيا ألقاب ترادف أسماء معينة ، وتكون هذه الألقاب بالمحلية، وقد جوز العلماء منها ما كان خالياً من العيوب ومن الجاهلية.

وفى اللغة الفلاتية أمثال بللو وثنبو وغطاط من أسماء الرجال، وأمثال غوغوِ ونانا من أسماء النساء.

وفى اللغة الهوساوية أمثال غربا وناله ودودو وإيتو من أسماء الرجال.

وفى اللغة اليوربوية أمثال أينذى وأينلا وأديسا.

والقاعدة الأساسية التى تراعى فى هذه الألقاب الأعجمية أن تكون معانيها خالية من آثار الوثنية ومن التزكية ومن العيوب .

* * *

محاربة الأسماء العربية فى غرب إفريقيا

من الغزو الثقافى المنظم على الإسلام فى هذه البلاد محاربة الأسامى العربية التى حمل لواءها المبشرون ولم يتفطن لها الأكثرون بل تبعهم فى ذلك كثير من المسلمين المثقفين فى كل مكان . ويلحق بذلك تعجيم الأسماء العربية بالتحريف البعيد عن الاسم على وجه الترخيم أو النحت وذلك مما يجب أن يحارب .

ولقد دعا إلى ذلك دعاة القومية والوطنية بأن من شأن من يخلع عن نفسه ربقة الاستعمار ، أن يخلع تبعاً لذلك الأسماء الأجنبية ، حتى ولو كانت قد سميت من قبل الكنائس والمساجد . فنبذ أكثرهم هذه الأسماء الدينية ورجعوا إلى الأسماء المحلية فتبعهم من لا يعرف من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن حتى رسمه فرجعوا إلى أسماء أجدادهم وأسلافهم المشتقة من

الأوثان أو من العقائد التوتمية، وقد نهى الإسلام عنها بقوله:

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]

وتوجد هذه الأسماء الجاهلية بكثرة فى بلاد يوربا وهى التى تمت بصلة إلى الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله فى الجاهلية، ويعتقدون أنهم منحدرون من تلك الأصنام.

مثل أوغن ومعناه الحديد المعبود، وأوبا أو شون إله البحر أو النهر المعبود، ومثل أوشو بمعنى الإله العائن، ومعنى أفابنى الإله الكاهن وشنغو بمعنى إله الرعد، فتجد بعض الحجاج وبعض الزعماء الإسلاميين فى بلاد يوربا حتى اليوم لا يزال يرادف هذه الأسماء باسمه على أنها أسماء أجداده فيجب أن يحتفلوا بها لأنها أصلهم ونشأتهم.

أليس من حسن إسلام المرء أن يبتعد عن آثار الكفر والوثنية فى كل شىء حتى لا يجد مكاناً بين المسلمين قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والمبشرون مخادعون إنهم يتحينون فرصة غفلة المسلمين

أو يستغفلونهم فى هذا الصدد حتى إذا جاء زمن إحصاء السكان استدلوا بتلك الأسماء على نقصان عدد المسلمين وكثرة الوثنيين، ثم إنهم قد حملوا أولاد المسلمين على تغيير أسمائهم فى المدارس الثانوية والجامعة لتنصيرهم ، ولهذا يجب على الدعاة أن ينبهوا المسلمين على هذا الشرك الدقيق.

* * *

سمات الوجوه والخدود

ومن التقاليد الجاهلية التى نهى عنها الإسلام الوشم والوسم.

أما الوشم : فهو غرز إبرة ونحوها فى أى موضع من أجزاء الجسد، حتى يسيل منه الدم ثم يدر عليه شىء نحو الكحل فيخضر.

أما الوسم : فهو الكى بقطعة من الحديد تحمى بالنار يكوى بها.

ولقد كانت هذه العادة شائعة فى مختلف أنحاء العالم قبل الإسلام.

وكانت نساء العرب يرسمن على أجسامهن بالسكين صور

الحيوانات أو النباتات، حتى لا يتركن فراغاً فى أجسامهن إلا وفيه وشم.

وإلى ذلك يشير طرفة بن العبد فى معلقته :

لخـولـة أطـلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

والوشم فى الوجه عادة متأصلة عند أهل نيجيريا وبلاد النوبة والبربر والسودان العربى، وهو رسم خطوط هندسية بالسكين على الوجوه أو الخدود لتكون علامة تمتاز بها كل قبيلة أو عشيرة، ثم انقلبت هذه العلامة إلى زينة.

ولقد حاربها الإسلام حتى لم يبق منها إلا القليل .

ذلك لأن الإسلام نهى عن الوشم فى الوجوه. منها ما رواه مسلم : « أن النبى ﷺ نهى عن الضرب فى الوجه وعن الوشم فيه ».

وأنه ﷺ قال: « لعن الله الواشمات والمستوشمات ».

ومر بالنبى ﷺ بحمار وقد وسم فى وجهه فقال: « لعن الله الذى وسمه » رواه الترمذى.

أما الوسم فى ظهر الدابة للعلامة فقد ورد فيه الرخصة

حيث ورد عن أنس أن أمه أمرته أن يذهب إلى النبى ﷺ بأخيه فيحنكه فوجد النبى فى البستان وهويسم ظهر الإبل التى قدمت عليه من فتح مكة وحنين» رواه مسلم.

* * *

التحايا الجاهلية

للعرب فى جاهليتهم تحايا كثيرة تحمل تفاؤلات جمة وتمنيات عامة، وأصلها الدعاء بالخير والحب منها قولهم:

عم صباحا: فى الغداة. وعم مساء: فى الرواح. وعم ظلاما: فى الليل. ولم يرد غير ذلك.

والكلمة أمر من وعم يعم بمعنى نعم ينعم. ويروى أنعم صباحا.

ومعناه الدعاء بالنعيم والسلامة من الآفات، ومنه قول امرئ القيس:

ألاعم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

ومن التحايا الجاهلية الخاصة بالأمراء والملوك قولهم:

أبيت اللعن: بمعنى أبيت أن تأتى ما تلعن عليه، كقول النابغة حين يعتذر إلى النعمان:

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى　　وتلك التى أهتم منها وأنصب

ولما جاء الإسلام أبدل تلك التحايا بأنواع الأدعية المقرونة باسم الله تعالى، أولها السلام، وهو اسم من أسماء الله تعالى وقال فى القرآن:

﴿ **فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً** ﴾ [النور: ٦١].

وهى «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفى الصحيحين: «أن آدم عليه السلام لما خلقه الله قال: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فسلم عليهم، واستمع إلى ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله».

لهذا جاء القرآن وقال: ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ﴾ [النساء: ٨٥].

تلك هى تحية أهل الإسلام فى دار السلام ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾ [الفرقان : ٧٥] .

أما صباح الخير ومساء الخير، فإنها مستوردة من الغربيين، وعودة إلى تحايا الجاهلية مثل عم صباحا، وعم مساء. فليس فيها اسم الله والأحسن أسعد الله صباحك ومساءك.

أما تحايا الملوك ، فالأحسن صرفها على صيغة الدعاء بأسماء الله مثل : أطال الله بقاءك وعافاك الله.

* * *

التعبد بالمكاء والتصدية من الجاهلية

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

والمكاء : الصفير ، **والتصديد** : التصفيق.. والمعنى ليس للمشركين عند البيت الحرام صلاة إلا الصفير والتصفيق فقط، هذا على سبيل العبادة.

أما ما كان على سبيل العادة فالتصفيق هو الضرب باليد على اليد الأخرى، وأصله عند العرب أنهم إذا تعاقدوا فى البيع

ضرب أحدهما بيده على يد صاحبه وقال: بارك الله فى صفقة يمينك، ومنه قولهم : احذر صفقة المغبون .

ثم سرت إلينا فى العصر الحديث عادة الإفرنج أن يصفقوا إذا ابتهجوا بكلام فى محاضراتهم أو برؤية محبوب فى مجتمعاتهم، وسرت العادة إلى بلاد الإسلام فأخذوا بها. فقام العلماء ينكرون ذلك بحجة أنها عادة الكفار ، وقد أمرنا بمخالفتهم فيما يفعلون .

والعادة الإسلامية أن يكبر المسلمون إذا رأوا أو سمعوا ما يسرهم ، كما ورد ذلك فى الأحاديث .

منها ما روى مسلم عن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ : «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قال فكبرنا، ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قال: فكبرنا، ثم قال: إنى أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» .

وذهب بعضهم إلى أنه لا بأس بذلك إذا جمعنا وإياهم مجتمع، لأن التصفيق فى حد ذاته ليس بحرام خارج الصلاة على سبيل العادة بل مأذون فيه للنساء وهن فى الصلاة، فقد جاء فى صحيح البخارى: «أن أبا بكر تقدم للصلاة يوماً فى غياب

النبى ﷺ لمصلحة ولما رجع أدرك النبى أبا بكر فى الصلاة فانتظم فى الصف، فصفق الناس حتى التفت أبو بكر فرأى النبى ثم تراجع رغم إذن النبى له فى التمادى بصلاته فأبى حتى تقدم النبى وصلى بهم. ولما فرغ قال: مالى رأيتكم أكثرتم التصفيق من رابه شيء فى صلاته فليسبح ، فإنما التصفيق للنساء والتسبيح للرجال ».

وعلى هذا الأساس كان التصفيق جائزاً للنساء فى الصلاة ، فلا يكون حراماً خارج الصلاة للرجال والنساء على السواء.

ولكن الأفضل هو التمسك بالعادات الإسلامية، حيث كان النبى يكبر فى كل ما يبعث التعجب والسرور ، ويسترجع ويحوقل فى كل ما يبعث الأسى والشجن.

* * *

أعياد الجاهلية(١)

فى الجاهلية أعياد متنوعة منها ما يعود إلى العرب المشركين أنفسهم، ومنها ما هى فى الأصل من بقايا الحنيفية، ومنها ما هى من أعياد أهل الكتاب.

أما أعياد أهل الكتاب فعن عائشة رضى الله عنها قالت: كانت قريش تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية وكان رسول الله ﷺ يصومه فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصومه، فلما فرض صوم شهر رمضان قال: «من شاء صامه ومن شاء تركه». متفق عليه.

---

(١) ومما يلحق اليوم بالأعياد الجاهلية ما استورده المسلمون من الغرب من إقامة عيد ميلاد الأولاد كل سنة، بحيث يقيمون للصبى الصغير حفلة فاخرة يدعون إليها زملاءه فى المدرسة وجيرانهم وينفقون فيها أموالاً طائلة كما يتقبل هذا الصبى من أولئك الأصدقاء هدايا كثيرة بهذه المناسبة فإن إقامة أعياد الميلاد من شعائر النصارى واليهود كما فى كتبهم.
أما إقامة ذكرى المولد النبوى فقد تكلم فيها العلماء منهم المنكرون لها ومنهم المبيحون وأنا لا أرى بأساً فى إباحتها ما لم يكن فيها إثم يرتكب، وذكرى المولد النبوى كذكرى الهجرة النبوية وهما أجدر بالتعظيم والإحياء.

أما أعياد الجاهلية فمنها ما رواه أبو داود وغيره :

« أن النبى ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً وجد لهم يومان يلعبون فيهما، فقال ما هذان اليومان ؟ قالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما : يوم الأضحى ويوم الفطر » .

أما أعياد الحنيفية فهى أعياد الحج وأشهر الحرم .

وفى الحديث الذى رواه البيهقى أن النبى ﷺ قال فى حجة الوداع : « أوصيكم بتقوى الله أى يوم أحرم من هذا؟ قالوا : هذا . ثم قال فأى شهر أحرم؟ قالوا هذا . قال فأى بلد أحرم؟ قالوا هذا البلد قال فإن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا وفى بلدكم هذا » .

وحاصله أن تحريم الأشهر بعدم القتال فيها كان من شريعة إبراهيم .

وكان حكماء العرب يحافظون على هذه الحرمة حتى جاء منهم من ابتدع النسيء وذلك بأن أحل منها ما شاء وحرم منها

ما شاء فجاء القرآن يقول: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ [التوبة : ٣٧] .

ثم نزلت آية أخرى تحقق تحريم الأشهر بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

* * *

بقايا الحنيفية فى الجاهلية

قال النبى ﷺ: «الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» متفق عليه.

قال السيوطى فى شرح الموطأ نقلاً عن الباجى: كانت العرب أحسن الناس أخلاقاً بما بقى عندهم من شريعة إبراهيم فى الفضل والمروءة والإحسان والعدل، وكانوا ضلوا بالفكر عن كثير منها فبعث الله النبى ليتمم محاسن الأخلاق ببيان ما ضلوا عنه وبما خص به فى شريعته وقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وروى عن ابن عباس أنه قال: ثلاثة أخلاق كانت فى الجاهلية مستحبة والمسلمون أولى بها: **أولها**: لو نزل بهم ضيف لاجتهدوا فى بره.

والثانى: لو كانت لواحد منهم امرأة كبرت عنده لا يطلقها بل يمسكها مخافة أن تضيع.

والثالث : إذا لحق بجارهم دَيْن أو أصابه شدة أو جهد، اجتهدوا حتى يقضوا دينه وأخرجوه من تلك الشدة.

وعن الحكيم الترمذى قال: مكارم الأخلاق عشرة تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه وتكون فى الابن ولا تكون فى الأب، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده يقسمها الله لمن أراد به السعادة وهى: صدق الحديث، وصدق البأس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، والتذمم للجار، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم ، والتذمم للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء.

وروى مسلم عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أعتق فى الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير، ثم أعتق فى الإسلام مائة رقبة وحمل على مائة بعير.

ثم أتى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله أرأيت أموراً كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة أو عتق رقبة أو صلة رحم فِيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : «أسلمت على ما أسلفت من خير» يعنى هداك الله إلى الإسلام بفضل ما أسلفت من خير.

ووقعت بنت حاتم الطائى أسيرة فى يد جنود المسلمين، ولما جيء بها إلى النبى ﷺ قالت : يا محمد هلك الوالد وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فإن أبى سيد قومه كان يفك العانى ويحمى الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ويفشى السلام ، ولم يطلب إليه طالب نظر حاجة فرده .

أنا ابنة حاتم الطائى .

فقال النبى ﷺ : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، ولو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق » .

* * *

الأكل بالشمال من الجاهلية

لقد اعتاد الناس فى هذا الزمان أن يأكلوا وأن يشربوا بشمالهم على موائد الطعام ، حتى أصبح المسلم والكافر والعالم والجاهل سواء فى هذه العادة .

وإذا قيل لهم : إن الأكل بالشمال منهى عنه فى الإسلام .

قالوا : إنما نأكل اليوم بالملاعق والأشواك لا نأكل بالأصابع مباشرة وإنما نهى النبي ﷺ عن الأكل بالشمال لأنها لمقابلة الأذى في الاستنجاء.

وهذا مما يجب التنبه إليه عليه واجتنابه لما جاء في زاد المعاد[١] لابن القيم: وكان النبي يأمر بالأكل باليمين وينهى عن الأكل بالشمال، ويقول: إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ثم قال: ومقتضى هذا تحريم الأكل بها وهو الصحيح، فإن الآكل بها إما شيطان وإما مشبه به . وصح عنه أنه قال لرجل أكل عنده فأكل بشماله « كل بيمينك فقال لا أستطيع. فقال: لا استطعت » فما رفع يده إلي فيه بعدها، ولو كان جائزاً لما دعا عليه النبي ﷺ بفعله وإن كان كبره حمله على ترك امتثال الأمر، فذلك أبلغ في العصيان واستحقاق الدعاء عليه .

* * *

(١) زاد المعاد ٢ / ٦٠.

الختان من بقايا الحنيفية فى الجاهلية

الختان سنة إبراهيمية أخذ بها العرب وغيرهم ، وكانت جارية فيهم ، وكانوا يختنون الطفل قبل بلوغه الحول الأول، وربما عملوا مع الختان عوائد أخرى غيرمعقولة، وجاء الإسلام وقرر الختان للرجال والخفاض للنساء، وجاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « اختتن النبى إبراهيم بالقدوم وعمره ثمانون سنة » . متفق عليه .

* * *

العقيقة من بقايا الحنيفية فى الجاهلية

روى أبو داود عن بريدة قال : « كنا فى الجاهلية إذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها . فلما جاء الإسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران » وروى البيهقى عن عائشة قالت : « كان أهل الجاهلية يجعلون قطنة فى دم العقيقة ويجعلونه على رأس الصبى فأمر النبى أن يجعل مكان الدم خلوقاً » .

* * *

تقنع النساء من بقايا الحنيفية

فى التوراة ما يدل على شرعية التقنع لنساء الأنبياء، من ذلك ما جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من التكوين: أن رفقة أخذت البرقع وتغطت لقدوم إسحاق عليها قبيل أن يتخذها زوجة.

وجاء فى التكوين أيضاً فى الإصحاح الثامن والثلاثين : أن ثامار تغطت ببرقع لما رأت يهوذا حتى كان ما كان من أمره معها، ولهذا بقيت آثار البرقع والحجاب عند أهل الكتاب حتى اليوم . كما هى واضحة عند راهبات النصارى.

وظلت هذه العادة تحتفظ بها العرب فى الجاهلية ومنها ما جاء فى كتب التاريخ والأدب:

أن النابغة أحد فحول الشعر الجاهلى الذى نال حظوة عظيمة عند النعمان ملك العرب فى الحيرة، ذكروا أن الذى أفسد ذات بينهما أنه مرت امرأة النعمان المسماة بالمتجردة فى مجلس فسقط نصيفها أى برقعها الذى كانت قد تقنعت به فسترت

وجهها بذراعيها وانحنت على الأرض ترفع النصيف بيدها الأخرى، فطلب النعمان من النابغة أن يصف هذه الحادثة فى قصيدة فعمل القصيدة التى مطلعها:

أمن آل مية رائح أو مغتدى   عجلان ذا زاد وغير مزود

إلى أن قال :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه   فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه   عنم على أغصانه لم يعقد

واستطرد فى الوصف حتى ذكر بطنها ومتنها وردفها وفرجها بقوله:

وإذا طعنت طعنت فى مستهدف   رابى المجسة بالعبير مقرمد
وإذا نزعت نزعت عن مستحصف   نزع الحزور بالرشاء المحصد
وإذا لمست لمست أخشم جاثما   متحيزا بمكانه ملء اليد

وكان للنعمان نديم يقال له المنخل، وكان يتهم بالمتجردة حتى يظن بولدى النعمان منها أنهما من المنخل ، ولما سمع المنخل هذا الشعر قال للنعمان : ما يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر إلا من قد جرب وذاق وثبت ذلك فى نفس النعمان وأوعد النابغة

شرا، فلما بلغ الخبر النابغة هرب إلى بلاط الغساسنة بالشام يمدحهم ولم يزل مع ذلك يبعث بقصائد الاعتذار إلى النعمان وقال فى بعضها :

لكلفتني ذنب امرئ وتركته كذى العريكوى غيره وهو راتع

ومما يدل على أن هذا الحجاب كان لخيار الناس فى الجاهلية قول امرئ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

* * *

التواضع الجاهلى فى نيجيريا وما حولها

لا تزال فى نيجيريا وما حولها من رواسب الجاهلية ما يسمونه بالتواضع، منها خلع النعال والانبطاح والسجود للتحية ونحوها من عادات ممقوتة فى دين الله، بالية مهجورة فى دنيا الناس، ولكنها باقية ومحببة إلى الأمراء والملوك والكبراء فى نيجيريا إلى اليوم .

ولا يستطيع أى واعظ أن يعلن إنكار ذلك على مسمع الأمراء ومرآهم إلا إذا رضى بأن يهتكوا عرضه أو يفتوا بكفره أو يهدروا دمه ، ثم استنزال لعنة الله والملائكة والناس على حياته أو موته وهم يحسبون أنهم يحسنون للأدب والتواضع والإسلام صنعاً.

ومن العلماء من يستحسن تلك التقاليد عن جهالة ، وعماية ومنهم من يستحسنها عن بصيرة ودراية ممالأة لتمادى الدهماء على تكريمهم بها وتمادياً مع الأمراء فى كبريائهم :

وإذا ضلت العقول على علم فمــاذا تقولــه النصحــاء

لقد وجدنا من العلماء من يختلقون لهذه التقاليد حديثاً مكذوباً على النبى ﷺ وغير معروف عند أهل الحديث هو قولهم: «عادة أهل البلد كالسنة».

أو يقولون بتأويل الحديث «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» أو يذهبون إلى تأويل السجود لغير الله بأنهم لا يقصدون به التقديس والعبادة، وإنما يقصدون التواضع والاحترام، ويقولون: إنما الأعمال بالنيات.

ولقد نظمت فى ذلك أبياتاً وألزمت الفوج الأول من طلاب مركز التعليم العربى حفظها، فكانت أول حملة إصلاحية قاموا بها فى المجتمع الإسلامى وهى:

ويح قومى جهلوا معنى الحيا وأساءوا فيه ختما وابتداء

هكذا قد جهلوا التواضعا وبنوه فى سجود وانحناء

خلع نعل جعلوه واجبا لهمو قبل وصول للفناء

كل من خالفهم فى هذه وصفوه بالذى منه براء

جعلوه كافراً لدينهم واستعدوا لقتال واعتداء

والتواضع الذى نعرفه مثل ما فى العقل أو شرع السماء

بقبول الحق من كل أحد ... واجتناب جرثوب الخيلاء
واحترام الغير في حد النهى ... واحتقار النفس لا كالحمقاء
والحياء الحق أن تسألني ... ما يقيك العار عند العقلاء
وبقي من كل فحش وخنا ... غير هذا لا يسمى بالحياء

وكل ما تبقى في نيجيريا اليوم من عادات خلع النعال للتحية أو الانبطاح أو السجود أمام الأكابر أو الملوك إنما هي من رواسب الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل هي من نزوات الشياطين وشهوات السلاطين الذين نصبوا أنفسهم آلهة يعبدون من دون الله.

وجاء العلماء واستحسنوها بدلاً من أن يستنكروها واعتبروها أدباً وتواضعاً بدلاً من أن يعتبروها ذلة وجهالة وكفراً، بل اعتبروا الخارج عليها شيطاناً متكبراً جديراً بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فيا عجبا قال الشاعر :

وفي الناس من عد التواضع ذلة ... وعد اعتزاز النفس من جهله كبرا

ومن العلماء من يطوون قلوبهم على كره هذه العادات وعلى استهجانها، ولكنهم لا يملكون من الأمر شيئاً ولا يجدون

مفرًّا ولا ملجأ من فعلها لمن لا يرضى إلا بفعله، وأنا من أولئك النفر الذين يرضخون قسراً على فعلها لهم ويعتمدون في ذلك على الحديث القائل: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

* * *

سجود التحية

السجود : لغة الخضوع والتطامن.

واصطلاحاً : وضع الجبهة على الأرض.

وعلى هذا المعنى الأخير يكون السجود لغير الله كفراً صريحاً بدليل قوله تعالى:

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾** [الجن: ١٧]

والمساجد أمكنة الصلاة الجامعة لعدد كبير من الناس.

والمساجد أيضاً أعضاء السجود، وهي اليدان والرجلان والركبتان والجبهة، كما في الحديث.

وروى أبو داود: «أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال له ما هذا يا معاذ؟ فقال: إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: لا لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» لعظم حقه عليها.

وفى رواية أخرى: أن سلمان لقى النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة وكان سلمان حديث عهد بالإسلام فسجد للنبى ﷺ فقال له «لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت».

وبتلك الآيات وهذه الأحاديث ثبت جليًّا أن السجود لغير الله حرام، وليس الأمر كما يزعم بعض علمائنا أن سجود التحية غير سجود العبادة، ويستحلون سجود التحية بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤].

وبقوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف : ١٠٠].

وقد رجح المفسرون ومنهم ابن كثير: أن كل ذلك كان جائزاً فيما مضى ثم نسخ بالإسلام.

الجُثُوُّ على الركب للاستعطاف

أما خضوع الرقاب وانحناء الظهر والجثو على الركب فجائز إذا لم يكن فاحشاً وكان الجمع جلوساً على السواء من غير أن يكون الجاثي نازلاً سافلاً وغيره متعالياً عليه(١) لأنه كان بين أبي بكر وعمر كلام شديد، فذهب إليه أبو بكر فسأله أن يغفر له فأبى عليه ثم ندم عمر على ذلك، فأتى منزل أبي بكر فلم يجده ثم أتى إلى النبي ﷺ فوجده هناك، فظهر الغيظ في وجه النبي حتى أشفق أبو بكر على عمر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله أنا كنت أظلم. رواه أبو داود.

قلت: ولما جثا أبو بكر ولم يُنكر عليه النبي ﷺ علم جوازه للضرورة، وجاء أن النبي ﷺ صلى بأصحابه الظهر فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة وما فيها ثم قال: «من أحب أن يسأل عن

(١) وألا يكون المقصود به التعظيم والتقديس والمسلم الحق ينزه نفسه عن كل هذه الأساليب الجاهلية، ولا يعبأ إلا بالأسلوب المأثور عن سلف الأمة في حياتهم وتعاملهم.

شيء فليسأل عنه فوالله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم ما دمت فى مقامى هذا. قال أنس: فأكثر الناسُ البكاءَ حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ فأكثر رسول الله أن: يقول سلوا: فبرك عمر على ركبتيه وقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، فسكت رسول الله، ثم قال رسول الله: أما والذى نفس محمد بيده لقد عُرضت عليَّ الجنة والنار فى عرض هذا الحائط وأنا أصلى، فلم أر كاليوم فى الخير والشر». متفق عليه.

خَلعُ النعال

من الجاهلية التى عمت بها البلوى عندنا من غير استثناء عاقل من جاهل ولا عابد من معاند، ولا صالح من طالح عادة خلع النعال قبل السلام على الأمير أو الكبير حتى فى الشارع، وذلك لأن النعال والمظلات والقلانس وسائر الملابس الفاخرة كانت تعتبر من سيما الامتياز الاجتماعى فى القرون الوسطى، تمتاز بها الطبقات الراقية من الملوك والأمراء والكبراء والأغنياء ولهذا قال الجاحظ فى البيان والتبيين[١]: إن الناس كانوا ينزعون نعالهم خارجاً إذا دخلوا على الملوك.

---

(١) ج١٣، ١١.

ولما جاء الإسلام نسخ كل ذلك بقوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

[الأعراف: ٣٢]

وعن النبى ﷺ قال: «استكثروا من النعال فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل» رواه مسلم.

وفى موطأ الإمام مالك «أن رجلاً نزع نعليه فقال كعب الأحبار لم خلعت؟ لعلك تأولت هذه الآية: ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾.

ثم قال كعب للرجل: أتدرى مم كانت نعلا موسى؟ قال لا أدرى. قال كعب: كانا من جلد حمار ميت.

هذا وإن كان خَلعُ النعال للصلاة مشروعاً فى شريعة موسى عليه السلام، فإنه منسوخ فى الإسلام بما رواه البخارى من أنه حين سئل أنس رضى الله عنه «أكان النبى ﷺ يصلى فى نعليه قال نعم»!

وعن أبى سعيد الخدرى «أنه بينما رسول الله ﷺ يصلى

بأصحابه رضوان الله عليهم إذ خلع نعليه فوضعهما على يساره فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم فلما قضى صلاته قال: ما حملكم على إلقاء نعالكم؟ قالوا: رأيناك ألقيت فقال عليه الصلاة والسلام: إن جبريل أتانى فأخبرنى أن فيها قذراً، فإذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذرا فليمسحه وليصل فيهما». رواه أحمد وأبو داود.

فيؤخذ من ذلك أن خلع النعال القذرة عند دخول الأمكنة الطاهرة واجب سواء كان بيتاً من بيوت الله أو بيوت الناس.

أما خلع النعال مطلقاً فى البيت والشارع لتحية أحد فلا يدخل فى الشرع ولا فى العقل، فإن النعل هى وحدها التى تمس الأرض وتقابل الأذى وتحمى القدمين من كل مضرة فلا معنى لتعريضها إلى الأذى والله يقول: ﴿ **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة: ١٩٥].

أما من ينشرح صدراً لمن يخلع النعل من أجله فهو أسوأ حالاً ممن سره أن يتمثل الناس له قياماً وقد أعده النبى ﷺ بقوله: «من أحب أن يتمثل الناس له قياماً فليتبوأ مقعده من النار». رواه أبو داود.

أما خضع الرقاب أمام كبير أو عظيم فقد ورد ما يدل على جوازه فى بعض أحوال، وبه فسر بعض المفسرين سجود الملائكة لآدم وسجود الأبوين ليوسف، وكان الصحابة يخضعون رقابهم فى حضرة رسول الله ﷺ .

إذ وردت كثير من الأحاديث تصفهم بأنهم جلسوا وكأن على رؤوسهم الطير، منها ما رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «إنما أخشى عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من بركات الأرض، ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأخرى. فقال رجل: يا رسول الله أيأتى الخير بالشر؟! فسكت عنه النبى ﷺ ، قلنا يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير» . إلخ .

ومن ذلك ما رواه أصحاب السنن عن أسامة بن شُرَيك قال: أتيت النبى وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير فسلمت ثم قعدت فجاء الأعراب من هاهنا وهاهنا ، فقالوا يا رسول الله أنتداوى، قال ﷺ : «تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد وهو الهرَمُ» .

ومما مدح به الإمام مالك رضى الله عنه قول الشاعر:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

* * *

الانبطاح

هو ارتماء الإنسان بصدره وبطنه على الأرض تذللا وانكساراً وطلبا لمرضاة أمير أو كبير أو سلطان أو ملك أو وزير.

ولقد كانت عادة الانبطاح والتمرغ فى التراب للملوك والعظماء شائعة فى غرب إفريقيا وفى نيجيريا، ويكون ذلك أحياناً بكل ما على الشخص من الملابس ويكون أحياناً بعد تجرده من الملابس وهذه جاهلية نكراء.

ولقد جاء فى رسالة الإمام مالك لهارون الرشيد (لا تضطجع على بطنك إذا نمت ولا فى غير نومك، بلغنى عن النبى ﷺ أنه قال: «إنها لضجعة يبغضها الله».

وروى البخارى فى أدبه وأبو داود فى سننه عن ابن طخفة

الغفارى «أن أباه أخبره أنه كان من أصحاب الصفة قال: بينما أنا نائم فى المسجد من آخر الليل أتانى آت وأنا نائم على بطنى فحركنى برجله فقال: قم هذه ضجعة يبغضها الله، فرفعت رأسى فإذا النبى قائم على رأسى»، وفى رواية أخرى قال: «قم نومة جهنمية».

لقد حارب العلماء عادة الانبطاح فى الأوساط الإسلامية بنيجيريا، فاندرست ولم تبق إلا عند الكفار وعند بعض المسيحيين الذين يختلطون بالكفار الذين كانوا عليها ولا يزالون يحتفظون بها، كشعار تعظيم العظماء والسلاطين والأمراء، ثم صار من الجاهلية الثانية، ومن البلايا التى يريدون إحياءها ونشرها بين الناس اليوم باسم التقاليد الوطنية والآداب الاجتماعية وتعظيم الكبراء.

حقيقة التواضع :

قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إنى أوحى إلىَّ أن تواضعوا ألا فتواضعوا، حتى لا يبغى أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخواناً».

قال الراغب الأصفهاني : التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه بفضله وبمنزلته ، وهو فضيلة لا تكاد تظهر في أسافل الناس لانحطاط درجتهم وإنما تتبين في الملوك وأجلاء الناس وعلمائهم وهو من باب التفضل لأنه يترك بعض حقه .

وجاء في الحديث « أن رأس التواضع أن تبدأ بالسلام من لقيت وترد السلام على من سلم عليك وأن ترضى بالدون من المجلس »(١) .

وطوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة وأنفق من مال جمعه في غير معصية وخالط أهل الفقه والحكمة ورحم أهل الذل والمسكنة . أخرجه السيوطي .

وسئل الجنيد عن التواضع فقال : إنه خفض الجناح ولين الجانب .

وسئل عنه الفضيل بن عياض فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته ، ومن رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب .

---

(١) رأيت هذا الحديث في أحد الكتب ولم أقف على تخريجه ، ولكن معناه صحيح يؤيده أحاديث وآثار أخرى في الإحياء للغزالي .

وقال يوسف بن أسباط : التواضع أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيته خيراً منك .

وقال ذو النون المصرى : ثلاث من علامات التواضع :

تصغير النفس مقروناً بعيب، وتعظيم الغير حرمة للتوحيد ، وقبول الحق والنصيحة من كل أحد .

وقال أبو يزيد البسطامى : ما دام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر، وإنما يكون متواضعاً إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالة من علمه بشر نفسه وازدرائها . ولا يرى فى الخلق شرًّا منه، قال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل .

تلك هى التعريفات الجامعة المانعة لمعانى التواضع وحقيقته فى الإسلام، وكل ما عدا ذلك فليس تواضعاً، وإنما هو تجاهل يجب أن يحاربه الدعاة .

* * *

آداب الإسلام مع العظماء

للأمم المتمدينة والشعوب المتحضرة فى غير نيجيريا من الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ملوك وأمراء وعلماء وكبراء يعظمهم أتباعهم وأشياعهم ويكرمهم رعاياهم أكثر مما نعظم ملوكنا ونكرم علماءنا وكبراءنا فى نيجيريا وما حولها .

من غير أن يخلعوا النعال أمامهم ولا أن ينكبوا على وجوههم كما نفعل نحن فى بلادنا هذه فأينا على الهدى والصواب ؟

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] .

أفلا ينبغى للمسلم الصحيح أن يقتصر فى الأدب مع الكبير على آداب الصحابة مع النبى ﷺ ؟ وهى معروفة فى كتب السيرة والتاريخ(١) .

---

(١) وأين عظمة أهل الدنيا، من عظمة الرسول ﷺ، وأين مكانتهم من مكانته؟

وذلك أن يتجنب الغلظة فى الفعل والجفاء فى القول، وأن يبتعد عن كل عادات الأعراب بل يلتزم الوقار والسكينة والاحترام وحسن المعاشرة والملاطفة. وينحصر كل ذلك تحت ما جاء فى سورة الحجرات من القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١ – ٥].

هذه هى الآداب المنصوص عليها فى كتاب الله تعالى والتى أمر الله بها المؤمنين أن يتأدبوا بها لسيدهم ومولاهم، وكفى بها آداباً سامية بين كل رئيس ومرؤوس وعالم وتلميذ وكل كبير وصغير.

وذلك بألا يتقدم المسلم على النبى فى الكلام والطعام والأخذ والترك، وألا يرفع صوته فوق صوت النبى فى حضرته حتى فى مماته .

وفى تفسير ابن كثير : أن عمر رضى الله عنه فى خلافته سمع صوت رجلين فى مسجد النبى ﷺ فجاء فقال أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا : من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

وعليه قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره عليه السلام: كما يكره ذلك فى حياته لأنه محترم حيًّا وميتاً .

ويقاس على ذلك عدم رفع مجلس غيره فوق مجلسه فى حضرته ولا مساواته، ويعلم ذلك من أن النبى ﷺ كان يخطب فى حياته على منبر ذى ثلاث درجات .

ولما جاء أبو بكر رضى الله عنه تنازل عن مكان النبى بدرجة، ولما جاء عمر رضى الله عنه تنازل عنه بدرجتين، وذلك قبل رفع المنبر وتجديد البناء.

وسئل عباس بن عبد المطلب يوماً : أى الاثنين أكبر، أنت أم

رسول الله ﷺ ؟ فأجاب على سبيل الأدب، أما رسول الله فهو أكبر منى ولكنى ولدت قبله.

ومن تلك الآداب أن لا يناديه أحد من بعيد حتى يدنو منه.

وأن لا يناديه باسمه الصريح بل بالكناية أو باللقب، فقد وضع الله تعالى لنا مثالاً لذلك، وذلك أنه لم يذكر اسم محمد صريحاً فى القرآن إلا فى أربعة مواضع لأسباب خاصة أما باقى الأماكن فإما أن يسميه رسولاً أو نبيًّا فيما يزيد على ثلاثمائة مرة.

ومن تلك الآداب أن يحبه أكثر مما يحب والديه وولده بل ونفسه التى بين جنبيه وأن يدعو له.

لأن القرآن يقول:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وقوله: ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣].

وأن يطيعه فى كل ما يأمر به وينهى عنه، وكذلك يفعل

مع كل أمير وكل كبير وكل وزير ، وكل عالم وكل من له حق على المسلم[١] .

والمسلمون على شروطهم إلا شرطاً حلل حراماً أو حرم حلالاً ، وكل شرط ليس له فى الكتاب والسنة دليل فهو باطل .

***

إلى هنا تم الكتاب

(١) وشتان بين طاعة المسلمين للرسول ﷺ وطاعتهم لغيره ، وحتى طاعة أولى الأمر مشروطة بطاعتهم لله ولرسوله ﷺ .

مراجع الكتاب

حكم الشريعة فى مأتم الأربعين — للعلامة حسنين محمد مخلوف
المستطرف فى كل فن مستظرف — للأبشيهى
كتاب التوحيد — للشيخ محمد بن عبدالوهاب

تلبيس إبليس — لابن الجوزى
الإبداع فى مضار الابتداع — للشيخ على محفوظ
اقتضاء الصراط المستقيم — للإمام ابن تيمية

مسائل الجاهلية — للشيخ محمد بن عبدالوهاب مع شرح للسيد محمود شكرى الألوسى

إحياء السنة — للشيخ عثمان بن فودى
حصن الأفهام — للشيخ عثمان بن فودى

الفهـــرس

الموضـــــوع الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مؤلفات الشيخ آدم عبدالله الإلوري

- حصاد المناسبات الإسلامية.
- حقوق الإنسان بين أديان السماء وقوانين الزمان.
- مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية.
- فلسفة النبوة والأنبياء في ضوء القرآن والسنة.
- نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي.
- نسيم الصبا في أخبار الإسلام وعلماء بلاد يوربا.
- توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا.
- الإسلام دين ودولة.

بالإضافة إلى كتب مدرسية أخرى.

